جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

دراســـات حـــول
نشأة البحث البلاغى وتطوره

تأليــف

الأستاذ الدكتور
فريد محمد بدوى النكلاوى
أستاذ البلاغة والنقد
بكلية
اللغة العربية بالقاهرة

الدكتور
إسماعيل محمد الأنور
مدرس البلاغة والنقد
بجامعة الأزهر

البحـــــث

- معناه .

- فوائده.

- منهجه.

- الباحث وصفاته.

➢ معنى البحث :ـ

(تتناول مادة " البحث " معانى : الكشفُ و الطلب ، والجـــد فـــي الشئ ؛ للتعرف على حقيقته ، والسؤال عن الشئ ، والاستقصاء فيه).

➢ فائدة البحث العلمي :ـ

أ- اكتشاف المجهول :

وذلك في ميادين الطب ، والجغرافيا والأدب وكافة فروع المعارف الإنسانية ، فتمكّنَ الإنسان من التحصن ضد كثير بـــن الأمـــراض ، وعَلِم بكثير من البقاع المجهولة ، وزحـــف إليـــها، وأقـــام بـــها ، ونضجت معارفه ونشطت في جميع تراثه حتى كان ذلك السيل الأدبى العظيم .

ب- تصحيح خطأ شاع و ذاع :

من ذلك نسبة حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمر بن الخطـــاب ﷺ وهو منها برئ ، فإن استمرار البحث أدّى إلى العثور على مذكـــرات القيصر الذى فتح مصر ، وكتب فى مذكراته صراحة أنه هو الـــذى حرق مكتبة الإسكندرية .

ج- وبالبحث والتقصى يتمكن الباحث من رد اعتراض ، ومـــن إتمـــام ناقص ، أو بسط المجمل ..الخ .

➢ معنى المنهج :-

والمنهاج ، والمنهج – بفتح الميم وكسرها في الأخير ، وهو في اللغة الطريق الواضح .

ونقصد بالمنهج في البحث العلمى :-

الخطة الجامعة لشئ من القواعد يلتزمها الباحث أثنـــاء جمعـه ودرسه ويدون ذلك في مقدمة بحثه .

وهذا يعنى أن الباحث يسترشد بهذه القواعد لينال مادة موضوعه ثم يعود فيطبقها في مؤلفه ، فليس" المنهج سوى خطـــوات منظمـة يتبعها الباحث في معالجة الموضوعات التي يقوم بدراســـتها إلـــى أن يصل إلى نتيجة معينة " .

- وبدهى أن يختلف منهج البحث فى الأدب عنه في الطـــب ، ومـــن العسير وضع منهج لأى بحث ، وبخاصة إذا كان بحثـاً فــي أحـد الموضوعات – العلمية النظرية – دون قراءة موسعة للموضـــوع يتضح من خلالها أمام الباحث إبعاد موضوعه ، وعمقه ، ومختلـف مسائله ومشاكله ، ومدى جهود السابقين فيه .

وللباحث ، أن يبدأ بالقراءة أولاً ، حتى يتضح أمامه الموضـــوع ثم يضع منهجه الذى ينظم على ضوئه بحثه ، ثم يعكف مــرة أخـرى على الدرس والفحص في كافة مراجعه حتى ينال بغيته ويتحقق لـــه مؤلف عظيم . وكلما ازدادت القراءة الأولى وازداد الاسترشاد خلالـــها كلما كان المنهج أقرب إلى الكمال ومن ثم يندر أن يغير الباحث فيه .

فوائد المنهج : وهى فوائد عديدة ، فإن المنهج :-

أ- يحدد موضوع الكتاب ، وأقسامه ، وطريقة معالجة قضاياه .

ب- ويجعل من اليسير علـــى البــاحث القــارئ للكتــاب أن يعلــم مدى فائدته منه

يعين المنهج الناقد فيجعله على بصيرة ، بحيث يتضح له الحكــم على نجاح المنهج في تحقيق أهداف البحث أو قصوره عنها ، كذلـــك يبين له مدى نجاح الباحث فى تطبيق منهجه أو تخليه عنه .

بين الباحث والموضوع :

ولا شك أن تكليف الطالب الجامعي بتقديم بحث أو اكثر - أثنـــاء دراسته التى تستمر أربع سنوات غالبا عقب دراسته الثانوية - فيـــه تمهيد طيب لتوجيهه نحو البحث وتحصيل المعرفة الصحيحة بجـــهده الخاص ، كذلك فيه اكتشاف مباشر لمـــن تتوافــر لــه مــن الطــلاب استعداداته للبحث والصبر عليه ، فالحق أنه كما أن كل موضـــوع لا يصلح أن يكون بحثا ، فكذلك ليس كل طالب أن يكون باحثــاً ، وإنمــا الباحث من توافرت فيه صفات بعينها تمكنـــه مـــن ممارســة البحــث والنجاح فيه .

➢ صفات الباحث :

وأولى صفات الباحث : الشغف بمادة علمية بعينها يحبها ويحب ما يدور في فلكها من مواد ، فإذا كان شغوفا بالشعر مثلا وجدناه شغوفاً بالتطور الأدبى للشعر مُلِماً به من عصوره الأولى حتى عصره الذى يعيش فيه ، عالماً بما يطرأ عليه من مذاهب القول وبما فيها من تجديد وابتكار ، دارساً للشعراء دقيقاً فى معرفة خصائصهم الفنية وتفاوتهم فى الدرجات الأدبية ، عالماً بالمؤثرات التى صُبِغ أديبهم بصفاتها ، أى أنه باختصار عالماً بتاريخ الأدب في قومه ، وعالماً بالنقد وفنه ، متصلا بالعروض والقافية اللذين يعتبران ميزان الشعر ، وهكذا إلى آخر الفنون الخاصة بمعرفة الكلمة وجودتها .

وثانيهما : أن يكون على ثقافة واسعة تناسب عصره ، وما الثقافة إلا معرفة عامة تتكون في الإنسان نتيجة حصيلته من معارف بيئته ودينها وعلمها وحصيلته مما قرأ من دروس .

وثالثهما : أن تتوافر له الأمانة العملية التى تقوده إلى التماس الحق ، وإظهاره ، ولو خالف رأيه وهواه ، فإنه لاشك أوعب من غيره فيما قرأ ودرس ، ويعلم منه ما لا يعلمه غيره ، وقد يتعمد باحث أن يغض الطرف عن شئ فى سبيل شئ آخر ولا يكتشف ذلك أحد من الناس ، لكنه إذا كان أمينا في بحثه فإنه لا تصدر عنه هذه الجريمة الخلقية .

ورابع تلك الصفات وألزمها : الصبر الذى يدفع عنه الضجر والملل إذا صادفته العقبات .

- **ومن هذه العقبات:ـ**

١ – عقبات العلم بما فيه من اختلاف وجهات النظر بين العلماء وعقبات العلم إذا لم تتوفر للباحث المراجع العلمية لندرتها أو لبعد دارها .

٢ – وعقبات المال التى قد تحول بين باحث ومادته .

والهدف النبيل خامس تلك الصفات ، فلو نظر الباحث إلى ما يدره عليه البحث من مال ، فأولى به أن يتوقف عن عمل البحوث العلمية التى أنتفع من ورائها ناشروها أكثر بكثير مما انتفع به أصحابها ، ونحن نرى – الآن – أمهات مراجعنا الإسلامية والعربية لا زال ناشروها فى نفع دائم مستمر منها ، بينما أصحابها لم يحظوا منها ، فضلا عن أن النظر إلى المال يجعل الباحث ـ وبخاصة الممارس لا المبتدئ ـ يعطى بقدر ـ أى يعطى بما يساوى ما يأخذ – وفى ذلك ما فيه من كتمان العلم الذى أمرنا بنشره ؛ لذا وجب أن يكون هدف الباحث نبيلاً رفيعا . ولا يكون كذلك إلا إذا كان هدفه العلم وحده وإرساء لبنة فيه تفيد الإنسانية .

وسادس تلك الصفات : الشجاعة الأدبية ، وهى قوة نفسية قد تقف بصاحبها ضد من يقاوم عمله من الناس أو الظروف ، وكم من

باحث صادفته هذه العقبات ولولا الشجاعة والصمــود لانــهار بحثه ولم يظفر منه بشيء .

٧- عدم التسليم بكل ما قرأ :

وإذا كان الباحث لا يستسلم لما تقدمه القراءة مــن أراء فليــس يعنى ذلك طرحها وإلاّ ما كان ناقداً ، ولا بصيراً ، إنما عليه أن يتخــير منها ما تقوى لديه صحته ويرى الأدلة على سلامته راجحة لا يتطــوق إليها شك أو اختلال .

وما كان من أراء عدا ما اختار يرى فيها ضعفاً أو خطأ فواجبــه يحتم عليه عدم تجريح أصحابها أو التشهير بهم ، وعليه احترام هــذه الآراء والإشارة إلى سبب الخطأ فيها بأدب . والبحث الناجح يتوفر فيه آمران : أن يتفق وميل صاحبه ، وأن يكون جديد فــى بابــه إذا مــا توفرت له المادة العلمية .

نشأة البلاغة وتطورها

ووضع قواعدها

نشأة البلاغة وتطورها

إن المتتبع لتاريخ البلاغة العربية عبر القرون المختلفة يلاحظ إنها مرت بمرحل متطورة منذ حياة العرب الأولى إلي أن وصلت إلى مرحلة الاستقرار والاستقلال .

ولما كانت دراسة تاريخ البلاغة لا يمكن أن تتم إلا من خلال الوقوف على تلك المراحل ، كان لابد من وقفة إزاء كل مرحلة مرت بها البلاغة العربية و أسهمت فيها بدرجة أو بأخرى .

١- البلاغة في العصر الجاهلي :-

لقد بلغ العرب فى الجاهلية مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان ،ومن أكبر الدلالة على ذلك أن كانت معجزة الرسول الكريم ﷺ و حجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن الكريم فى بلاغته الباهرة ، وهى دعوة تدل فى وضوح على ما أوتوه من اللسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام ، كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعانى وتبن ما يجرى فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير ، ويروى أن الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول الألداء واستمع إليه وهو يتلو بعض آيات القرآن فقال :" والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الأنس ولامن كلام الجن

،وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ،وإنه يعلوا ولا يعلى عليه [١] " .

وفى كلام الوليد هذا ما يدل على أنهم كانوا يعربون عن إعجابهم ببلاغة القول فى تصاوير بيانية ، ويروى أن الرسول الكريم استمع إلى بعض خطبائهم فقال : إن من البيان لسحراً [٢].

فصناعة الكلام وفصاحة القول ، والاقتدار على التفنن فى اضرب البلاغة والبيان ، كل ذلك كان هو سلعة العرب فى جاهليتهم ، ولا نكون مخطئين إذا قلنا : إن تلك الصناعة دون غيرها من الصناعات كانت هى السمة بارزة التى فضل بها العرب عل سائر الأمم ، ولذلك كثر فيهم الشعراء الفحول ، والخطباء المفلقون ، وأرباب الحكم والأمثال ، وكانت الإجادة فى فن القول ، وبخاصة الشعر الذى كان ديوانهم - ناتجة عن سليقة وطبع فطريين [٣] .

---

[١]- ينظر : الكشاف للزمخشرى ص ٤ ، ص ٦٣٦ وهو بصدد تفسيره لسورة المدثر ، وينظر :البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ٩ طبع دار المعارف سنة ١٩٦٥م.

[٢]-ينظر: العمدة لابن رشيق تحقيق / محمد محيى الدين جـ ١ ص٢٧ ط / دار الجبل - بيروت - الخامسة سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٩ .

[٣]- ينظر : العمدة لابن رشيق جـ١ ص ١٦ : ٣٠ والمقاييس البلاغية عند الجاحظ فى البيان والتبيين للدكتور / فوزى السيد عبد ربه ص٤٩ ط / دار الثقافة للنشر والتوزيع سنة ١٩٨٧ م .

والشعر كان أكثر فنون الكلام عند العرب وكان يستدل به على تاريخهم وأمجادهم ، وأيامهم و وقائعهم ، كما يستدل بآثار الأمم من أهل الحضارات القديمة [1].

فقد روى عن سيدنا عمر ﷺ قوله :- خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدى حاجته ، يستميل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم " [2].

ومن الثابت تاريخيا أنهم وصلوا فى هذه الصناعة إلى درجة رفيعة من الفصاحة والبيان ، وقد استقام لهم هذا البيان فصار فيهم سليقة وطبعا ، فكان الواحد منهم لا يكلف نفسه إلا أن يصرف همه إلى الكلام فتأتيه المعانى إرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ والعبارات انثيالا .وقد امتزجت قلوبهم وعقولهم بألسنتهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب [3].

وعلى قدر حرصهم على مكارمهم المشهورة من الشجاعة وقِرَى الضيف وغير ذلك ، كانوا يحرصون على أن يوصفوا بالفصاحة فى

---

[1] – المقاييس البلاغية عندالجاحظ ص ٤٩ .

[2] – البيان والتبين للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون جـ ٢ ص ١٠٢ ط / الخانجى – السابعة سنة ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨م .

[3] – السابق ٢/٢٨/٢٩ ، وينظر المقاييس البلاغية ص ٥٠

القول وإصابة المحز وتطبيق المفصل ، وأنهم أهل اللسان والبيان وأمراء الكلام[1].

يدلنا على ذلك ما صوره القرآن الكريم حين قال فى شأنهم :- (وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)[2] ، وقال : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [3]، كما صور شدة عارضتهم وقوتهم فى الحجاج والجدل [4] يمثل قول الحق تبارك وتعالى :-(فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ)[5].

والناظر فيما خلفه العرب من أدب جيد - منثورا كان أو منظوما - يلحظ أنه يحمل فى تضاعيفه ما يصور فصاحة منطقتهم التى تجذب الأسماع وتستميل القلوب وهذا يدل أيضا على حذقهم لفنون القول ، وخبرتهم بطرق البلاغة والبيان [6].

وقد كان العرب يقومون كلامهم و أشعارهم ويحكمون عليها ، ويفاضلون بينها ، وكان الشاعر يقف عند اختيار ألفاظه ومعانية وصورة ، ومن يتصفح أشعار العرب فى الجاهلية يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات والكنايات ، وتتناثر فيها من حين إلى آخر

---

1 - المقاييس البلاغية ص ٥٠ .
2 - سورة المنافقون من الآية رقم ٤ .
3 -سورة البقرة من الآية رقم ٤ .
4 - ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص٩ .
5 - سورة الأحزاب من الآية رقم ١٩ .
6 - ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص١٠ والمقاييس البلاغية عند الجاحظ ص٥٠ .

ألوان المحسنات والمقابلات ، وكل ما يبعث فى الكلام المتعة واللـذة والجمال من ألوان بلاغية [١] ، وإن كانت هـذه الألـوان لـم تعـرف بمسمياتها الاصطلاحية ، كما لم تكن البلاغة بأقسامها الثلاثة "المعـانى والبيان والبديع " معروفة لدى الجاهلين على النحو الذى عرفـت بـه بعده " .

والشعراء والخطباء – فى ذلك العصر – لم يكونوا يقبلون كل مـا يرد على خواطرهم من معان وألفاظ ، بل كانوا يعيدون النظـرة تلـو النظرة فى معانيهم وألفاظهم ، ويهذبوها ، ويبذلون فى ذلك جهد كبيرا ، حتى يخرج على الناس كلاما يحمل بيانا سـاحرا يقـر بـه جميـع سامعيه [٢].

ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كـاملا ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويعمل فيها فكره ، ويقلب فيها رأيـه ، وهذا يعنى أن الشاعر كان لا يخرج كلامـه علـى النـاس إلا بعـد مراجعة ، وتهذيب وتثقيف ، وبعد أن يعيد النظر فـي معانيـه ، فمـا وجده منها ملائما للمقام الذى صيغ من أجله هذا الشعر أقـره ، ومـا وجده غير مناسب للمقام غيّره ، وأتى بمعان تتفق وطبيعة هذا المقـام ،ومن ناحية أخرى ينظر فى ألفاظه وعباراته ، ومدى تأديتـها لـهذه

---

١ – ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص١٣ ، والمقاييس البلاغية عند الجاحظ ص ٥١ .

٢ – المقاييس البلاغية ص ٥١ .

المعانى التى طلبها فى شعره ، فما كان منها مناسبا للمعنى ومؤديا له أبقاه ، وما وجده غير مناسب غيّره بألفاظ وأساليب أخرى ، بل إذا كان هناك من الألفاظ والعبارات مايؤدى المعنى بالصورة احسن وافضل غير ألفاظه وعباراته إلى ذلك الأحسن والأفضل ،ولذلك كانوا يسمعون تلك القصائد :الحوليات والمنقحات ،والمحكمات (١).

ولننظر فى الألقاب التى كانوا يطلقونها على شعرائهم ، للدلالة على مدى إحسانهم فى رأيهم ، مثل المهلهل ، والمرقش ، والمثقب ، والمنخل ، والمتنخل ، والأفوه ، والنابغة) وكأنما كان هناك ذوق عام ، وحس صادق متمكن فى نفوس القادرين وأذواقهم ، دفع الشعراء ومن وراءهم من الخطباء إلى تحبير كلامهم وتجويده ، والاعتناء بشأنه ، قبل أن يخرج إلى الاحتكام ، حيث إن بعضهم كان يراجع بعضاً ، وأنهم كانوا يبدون فى ثنايا مراجعاتهم بعض الآراء فى المعانى والألفاظ (٢) ، من خلال أسواق ينصبونها لذلك الغرض .

فقد روت كتب تاريخ الأدب أنه كان للجاهلين أسواق كبيرة عملت على نشأة هذا الذوق ، وخاصة سوق عكاظ بجوار مكة ، إذ كان الشعراء والخطباء يتبارون فيها ، وكل يريد أن يحوز قصب السبق لدى سامعيه دون أقرانه ، ويظهر أنه كان لقريش فى ذلك الحكم الذى

---

١ - ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص١٠ والمقاييس البلاغية ص٥٢ : ٥٤ .

٢ - ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص١٠ ، ١١

لا يرد ، ففي الأغاني :- (أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردودا [1]ويبدو أن الشعراء النابهين من كان يقوم في هذه السوق القاضي الذي لا تدفع حكومته ، ففي أخبار النابغة الذبياني أنه كانت تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ ، ويأتي إليه الشعراء ينشدونه فيحكم بينهم ، مقدرا لهذا إبداعه ودقته في مقابل كشف عيوب غيره وأخطائه ، فمن نوه به طارت شهرته في الآفاق ، حيث كان يبدي الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم [2] .

ففي ذات مرة جاءته الخنساء فأنشدته قولها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به ∴ كأنه علم في رأسه نار

فأعجب النابغة بقولها ، فغاظ هذا الإعجاب حسان بن ثابت فثار وتحدى النابغة وأباه والخنساء أن يأتوا بمثل قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ∴ وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق ∴ فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

لكن النابغة لا يعجبه هذا التصور فيقول له : إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ولو قلت :

---

١ - الأغاني جـ ٢١ ص ١١٢ ط / الساسي

٢ - ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص ١١ .

الجفان لكان أكثر ، وقلت : يلمعن فى الضحى ، ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت : يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : يجرين لكان أكثر لا نصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، فقام حسان منكسرا منقطعا [١] .

فواضح أن حسان أراد أن يفتخر بقومه ، ومالهم من قوة وبلس ، ونسب عريق ، ولكن كما هو بين من تعبير النابغة أن ألفاظ حسان جاءت تقلل من أمر قومه وتصغر من شأنهم ، فالمفتخر - دائما - يركب متن المبالغة فى كلامه وألفاظه ومعانيه ، فيكثر القليل ويعظم الحقير . ويكبر من شأن الضئيل ، أما أن يقلل ما هو آلة القوة ، وهى الأسياف والجفنات ، ويسمو بالفرع ، ويترك الأصل . فهذا بعد بالألفاظ عن المقام الذى سبق الكلام من أجله ، وقد أدرك النابغة هذا ، وأقام حكمه عليه [٢] .

والذى حدث بين النابغة وحسان إنما هو نموذج للنقد البلاغى فى مراحله الأولى ذلك النقد المبنى على الذوق الفطرى .

---

[١] - الأغانى طبع دار الكتب ٣٤٠/٩ .
[٢] - المقاييس البلاغية ص ٥٩ .

وهناك أمثلة أخرى للنقد الذى بنى على الذوق الفطرى فى مرحلته الأولى منها على سبيل المثال : ما ذكره الرواة من أن طرفة بن العبد نقد المتلمس فى قوله وهو ينشد قومه :-

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ∴ بناج عليه الصيعرية مكدم .

فصاح طرفة : استنوق الجمل [١] ، إذ إنه أدرك أن القائل (المتلمس) أخطأ ، لأن الصيعرية سمة فى عنق الناقة لا فى عنق البعير ، فهى خاصة بالنوق دون الجمال .

فذوق الناقد القطرى عرف أن الشاعر قد نسب الشئ إلى غيره ، وهذه فطنة من الشاعر ، وهذه الفطنة ضرورية للناقد فضلا عن الطبع[٢]

فهذه المثل وأمثالها مما روى عن العرب فى جاهليتهم تدلنا على مبلغ تيقظهم للشعر ، و اهتدائهم بفطرتهم إلى ما فيه من محاسن وأخطاء ، فنقد النابغة يتصل بالغرض العام ، وتوفية المعانى حقها من المبالغة فى مقام التفاخر ، وذكر المآثر ونقد طرفه يرمى إلى صواب

---

١ – استنوق الجمل : أى صار كالناقة فى ذلها ، فحول الجمل إلى نعت ناقة ، يقال : جمل منوق : أى ذلول قد أحسنت رياضته ، وقيل : هو الذى ذلل حيث صير كالناقة (ينظر : لسان العرب – نوق) .

٢ – ينظر : البلاغة العربية تاريخا وقاعة وتطبيقا للدكتور المحمدى عبد العزيز الحناوى – جـ١ عن ٧ نشر مكتبة الحناوى سنة ١٣٩٧هـ ١٩٧٧ م .

العبارة وصحتها فـــى الوصــف والأداء ، واســتعمال الألفــاظ فــى مواضعها[1] .

وغير ذلك من اللمحات النقدية الفطرية التى بنيـــت علـــى ذوق فطرى ، ليس منظما ولا ناضجا ، كما أن هذه النقـــدات لـــم تخضـــع لقواعد وأصول معروفة بين المتذوقين ، بل نقـــدات خاصـــة للمحـــة الخاطر ، والذهن وكان طبيعيا أن تجئ هذه القواعد الفنية متأخرة عـن عصر النقد البدائى [2] .

ومن ناحية أخرى فلقد كـــان الشـــعراء والأدبـــاء - كمـــا قلنـــا يستعملون ألوانا من البلاغة تضفى علـــى الكـــلام جمـــالا وطرافـــة ، ويعدونها طرائف يزينون بها أشعارهم أو كتاباتهم ، ومن الطبيعـــى أن تزيين الأسلوب بهذه الألوان ، كان له اعتبار فى تقدير النص الأدبـــى ، والحكم عليه بالجودة أو القبح نظرا لما فيه - مثـــلا - مـــن اســـتعارة حسنة أو قبيحة أو تشبيه مقبول وآخر غير مقبول وهكذا [3] .

هذا يدل على أن البلاغة كفن للقول ، كانت معروفة فى العصـــر الجاهلى فى صورة مقاييس وملاحظات نقدية مبنيـــة علـــى الـــذوق ، وخاضعة للعقل الناضج الموهوب ، هذه المقاييس وتلك الملاحظـــات ،

---

[1] - ينظر البلاغة بين عهدين للدكتور محمد نايل أحمد ص٢٨ ط/ دار الفكر العربى - غير مؤرخة .

[2] - البلاغة العربية تاريخا وقاعدة وتطبيقا جـــ١ ص٩ .

[3] - ينظر : السابق جـــ١ ص٩ .

كان يحكم بها على فنون القول (شعرا وخطابة ووصيـــة) بالإجـــادة والاستحسان ، أو بالقبح والاستهجان ، أما البلاغة كعلم يـــدرس لـــه أصوله وقواعده ، فلم تكن معروفة فى هذا العصر (١) .

ويؤكد الدكتور شوقى ضيف ذلك فى كلامه على نشـــأة البلاغـــة وتطورها فيقول :

"فقد بدأت - أى البلاغة - فى شكل ملاحظات بسيطة كان ينشرها العرب فى الجاهلية ، وأخذت هذه الملاحظات تكثر مـــع رقـــى الحيـــاة العقلية العربية بعد الإسلام ....." (٢) ، ويقول :-

"كانوا - أى الجاهليون - يقفون عند اختيار الألفاظ والمعانى والصور ، وكانوا يسوقون أحيانا ملاحظات لا ريب فى أنـــها أصـــل الملاحظـــات البيانية فى بلاغتنا العربية ، ومن يتصفح أشـــعارهم يجدهـــا تزخـــر بالتشبيهات والاستعارات ، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان مـــن المقابلات والجناسات ، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنـــون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنن فى معارضه البليغة (٣) .

وبذا يتضح أن البلاغة العربية لها جذور فى العصر الجـــاهلى ، وإن كانت تلك الجذور تتمثل فى تقويم الأسلوب ، وإظهار ما يتضمنـــه الكلام من حسن بيان أو قبح تصوير ، وهـــذا يعنـــى أن الملاحظـــات

١- ينظر : دراسات فى البلاغة العربية للدكتور / محمود شيخون ص٥ بدون طبعة .
٢ - البلاغة تطور وتاريخ ص٥ .
٣ - السابق ص١٣ .

النقدية التى كان يعنى بها النقاد يقصد بها الملاحظات البلاغية فى ذلك العصر، باعتبار أن النقد والبلاغة فى العصر المذكور كانا صنوين .

٢ – البلاغة فى عصر صدر الإسلام :

بينا فى العصر الجاهلى أن البلاغة أو النقد لم يكن لهما منـــــهج معلوم ولا مقاييس محددة ، وإنما كانا عبارة عن ملاحظات متنـــاثرة ، وإشارات مختصرة يحكم بها على العمل الأدبى بالإجادة والاستحسان ، أو بالقبح والاستهجان .

فلما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم على سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد ﷺ اختلف الحال إذا انتقلت الأمة من وضع إلـــى وضع [1] .

فلقد ساعد القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ بما تضمناه مـــن فصاحة وبلاغة على بلوغ اللغة العربية الذروة العليـــا مـــن البراعـــة والفصاحة .

وقام ﷺ على رأس هذه الدولة (الإسلامية) يحكمـــها ويعلمـــها ، يبين لها أمر دينها ، فكان ﷺ فى بيانه وتعليمه سراجا منيرا ، يجـــب

---

[1] – أضواء على مراحل البحث البلاغى للدكتور محمد جلال الذهبـــى ص ١٤ ط /دار الاتحـــاد التعاونى للطباعة والنشر – غير مؤرخة.

اتباعه والسير فى ضوء نوره فنهى عن كل قبيح مــن قــول أو فعــل وحث على كل جميل من قول أو فعل [١].

ولا ريب فى أن القرآن الكريم كان قد أثار انتباه مستمعيه ، وهـز مشاعرهم وحرك وجدانهم ، وبعث فى النفوس الروعة والرهبة ونفــذ إلى القلوب الصلدة فبث فيها الشفقة والرحمة ، وهو من جنس كلامهم وعلى مألوف أساليبهم ، فكانوا عندما يستمعون إليه يخيل إليهم أنــهم قادرون على أن يأتوا بمثله ، أو أن ينهجوا نهجه ، ويحــاولون ذلــك الكرة بعد الكرة فيستبين لهم العجز ، ويبدو لهم القصور فلم يلبثــوا إلا أن يخروا أمام بلاغته وبيانه ساجدين ، فروى أن أعرابيا سمع قــول الحق تبارك وتعالى :- (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْـرِكِينَ)[٢] فخر الوليد بن المغيرة وهو من هو فى عناده وعداوتــه لرســول الله ﷺ، لا يتمالك نفسه أمام روعة القرآن وسمو بلاغته عندمــا اســتمع إليه من رسول الله ﷺ فقال :

(والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق) .

١- ينظر : السابق .

٢- سورة الحجر من الآية ٩٤ .

فقد اعترف الوليد بالعجز عن مجاراة القرآن أو الإتيان بمثلـــه ؛ لأنه فوق طاقة البشر ، ولكن الجحود والنكران أصم آذانهم وأغشـــى أبصارهم وختم على قلوبهم ، قال تعالى﴿وَجَحَـدُوا بِـهَا وَاسْـتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾(١) ولذلك فقد اضطربوا فى الحكم عليـــه فمـن قائل: إنه سحر ، ومن قائل: إنه شعر، ومـــن قـــائل : إنـــه أســـاطير الأولين ...الخ (٢).

فالقرآن الكريم الذى لوى الأعناق إليه وجذب الأفئدة نحوه جـــاء عامرا بالفنون البلاغية التى كانت تبدو فى أشعار الجاهلين ، ولكنـــها فى القرآن الكريم جاءت على حد من الفصاحة والبلاغـــة ليـس فـــى مقدور بشر ، فالقارئ للقرآن الكريم يروعـــه تشـــبيهاته ، وتأســـره استعاراته ، وتهزه كناياته ، والطباق فيه يـــبرز المعنـــى ويجليـــه ، والتجنيس يحسنه ويزينه ، فكل فن من فنون البلاغة تجده فى القـــرآن الكريم فى أبهى حلة وأحسن وضع وأدق معنى وأحلى صورة . أما من حيث المعانى ، فإن القرآن الكريم وهـــو دســـتور الأمـــة ، ومعجـــزة الرسول ، ومفخرة العرب ، فقد حرم على المسلمين الفواحش ما ظهر منها وما بطن وبين لهم أن كل لفظ محسوب على صاحبـــه ثـــم هـــو مجزى به إن خيرا فخير وإن شرا فشر (مَا يَلْفِظُ مِـــن قَـــوْلٍ إِلاَّ لَدَيْـــهِ

١- سورة النمل من الآية رقم ١٤ .

٢- ينظر:من جهود اللغويين والمفسرين فى البحث البلاغى للدكتور عبد الله محمـــد ســـليمان هنداوى ص ١٠ط الأمانة-أولى ١٤٠٦-١٩٨٦ .

رَقِيبٌ عَتِيدٌ)[1] وبين لهم المصطفى ﷺ ذلك بوضوح وجلاء حين قـال لمعاذ بن جل : "٠٠ أمسك عليك هذا – لسانه – فقال معاذ : يا رسـول الله : أو إنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال له : ثكلتك أمك يا معـاذ – وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم؟"

من هنا فقد أمات الإسلام – فى هذه الحقبة الهجاء المقذع الـذى كان يدور على السنة الشعراء والنقاد اللهم إلا ما كان بين المسـلمين ومشركى مكة ، وعلى هذا فقد ظهرت ملامح منهج للنقـد والبلاغـة يقوم على أساس الدين ، ويأخذ فى اعتباره أوامر الشرع و نواهيـه ، ثم إن القرآن الكريم بما حوى من إعجاز فى نظمه كان جديـرا بـأن تتجه إليه العناية لشرح ألفاظه وتفسير آياته ، وتعرف أساليبه ، وتبين معانيه ، واستنباط الأحكام منه ، بل واتخاذ صورد البلاغية مقـاييس يحتكم إليها ، وهى حتى يومنا هذا أو إلى أن تقوم الساعة لم ينقـص من روعتها شئ ، بل تزيد على مر الزمن جمالا وجلالا ، وهـذا مـا استرعى انتباه العلماء والبلغاء والأدباء أن يولوا وجوههم شطره ، كل يعكف على جانب من جوانب روعته ، مما أثمر بعد ذلك علوما عـدة ، ومؤلفات كثيرة ، كلها تتعلق بالقرآن الكريـم ، وهنـا أخـذت كلمـة

[1] – سورة (ق) الآية رقم ١٨ .

(البلاغة) مكان الصدارة دون كلمة (نقد) إذ رأى فيها العلماء الذين عنوا بالنص القرآنى ما لا يليق إزاء قداسة وعظمة القرآن الكريم [١].

وكان حديث رسول الله ﷺ نموذجا يحتذى به فى الفصاحة والبيان وجوامع الكلم ، وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - حريصين على الاستماع إليه وحفظه فى الصدور وتثبيته فى القلوب ، وتطبيقه فى واقع حياتهم ، فهو ﷺ :- " لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فحوى ، من كلامه ﷺ" [٢] .

١ - ينظر: أضواء على مراحل البحث البلاغى ص١٧ ، ١٨ .
٢ - البيان والتبيين جـ٢ صـ١٧ ، ١٨ .

وكان ﷺ يكره التقعير فى الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة واستعمال وحشى اللغة فى مخاطبة العامة فيقول :- (أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون [١]، ويقول (إياى والتشادق) [٢].

وجملة القول : أن القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ عملا على تهذيب اللغة وتنقيتها من الألفاظ الغريبة الوحشية ، وهذا يعنى أنهما كونا طريقا مرسوماً يجب أن يسلكه منشئ النص وناقده ، صحيح أن ذلك لم يكن فى صورة قواعد وقوانين مكتوبة ، ولكنه كان إحساسا وذوقا يكاد يكون عاما ، وإلا فلماذا نقول : حين نجده ﷺ يغير بعض أسماء أصحابه ، حين يجدها توحى بما يكره أو تضفى بظلال غير محمودة على مسماها ، وقد روى أنه ﷺ لما رزقت السيدة فاطمة - رضى الله عنها - بالحسن سأل ﷺ ماذا سماه أبوه ؟

قالوا : سماه حربا ، فغيره ﷺ إلى الحسن . فلما رزقت بالحسين ، سأل نفس السؤال فقيل ، سماه حربا أيضا وأسماه حسينا ، فهذه كلها توجيهات فى اختيار اللفظ وتحكيم الذوق . هكذا كان الشأن فى

---

١ - المتفيهقون : الذين يتوسعون فى الكلام ويفتحون به أفواههم ، مأخوذ من الفهق ، وهو الامتلاء والاتساع .

٢ - البيان والتبيين جـ١ صـ١٣ .

المعانى ، فلا وقوف إلا مع الفضيلة ، إنها نفوس تهذبت ، وأرواح سمت رفعها الإسلام وهذبتها تعاليمه ، فسمت معها ألفاظهم وصورهم التعبيرية ومعانيهم ومقاصدهم التى يعبرون عنها .

هذا ، وكان صحابة رسول الله ﷺ يعرفون مواطن الحسن فى الكلام ، كيف لا ؟ وقد تربوا على يد رسول الله ﷺ فهم الصفوة الذين حملوا الأمانة من بعده ، وكلهم كانوا قمما فى الفصاحة والبلاغة ، فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يسأل رجلا معه ثوب يبيعه يقول له ، أتبيعه بكذا ؟ فيرد الرجل قائلا : لا ، عافاك الله ، بمعنى : لا أبيعه بكذا ثم دعا له بقوله : عافاك الله ، هذا مقصده لكن عبارته توهم خلاف ذلك ، فقال له الصديق معلما : قل : لا وعافاك الله ، هنا لا التباس ولا إيهام [١] إنه ذوق رفيع ومعرفة كاملة بأبعاد الكلام ومراميه ، وهل رأيت أجمل من هذه التورية التى قال الصديق : حينما كان مع رسول الله ﷺ فسئل : من هذا ؟ فقال : هذا هاد يهدينى الطريق ، ثم إن خطب الصديق رضي الله عنه حين ولى أمر المسلمين ، وحين وجه الجيوش اتسمت بجزالة اللفظ ، وسماحة الأسلوب ، ووضوح الغرض مع الإيجاز الذى لا يفوت معه شئ من المعنى .

---

[١] – إذا إن المخاطب قبل ذكر الواو كان يتوهم أن قوله (لا عافاك الله) دعاء عليه لا له فلدفع هذا الوهم جئ بالواو ، وهذا ما ذكره البلاغيون فى مبحث الفصل والوصل ، وأطلقوا عليه كمال الانقطاع مع الإيهام ، وهو من مواضع الوصل لدفع هذا الإيهام .

وحسبى هنا أن أذكرك بمقالته ﷺ حين علم بوفاة المصطفى ﷺ وقد سمع عمر ﷺ يقول : من قال : إن محمدا قد مات ضربت عنقه بالسيف ، فصعد أبو بكر ﷺ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا قوله تعالى : " وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ "[١] عندئذ أفاق عمر وقال : كأنى لم أسمع هذه الآية من قبل .

بهذه البصيرة النافذة استطاع الصديق ﷺ أن يقدم الحجة التى تعيد الإنسان إلى صوابه ، والحق إلى نصابه فى بيان رائع مما جعل الفاروق ، وهو صاحب الفطنة النقادة يعود إلى الحق ، ويعترف بالواقع ، ويؤمن بالقضاء والقدر مهما عظمت المصيبة وجل الخطب [٢].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ ذا بصيرة فذة فى نقد الشعر والثناء على الجيد منه ، يوضح لنا ذلك ما قاله ابن رشيق فى شأنه :- "كان (أى عمر)من أنقد أهل زمانه للشعر ، وأنفذهم فيه معرفة " [٣] ، وكان

---

١ - سورة آل عمران - الآية ١٤٤ .
٢ - أضواء على مراحل البحث البلاغى صـ١٩ ، ٢٠ .
٣ - العمدة لابن رشيق جـ١صـ٣٢ .

يقدم زهير بن ابى سلمى على غيره من الشعراء ويمتدحه ، ويشرح حجته فى ذلك فيقول :- " كان لا يعاظل بين الكلام [١] ، ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه [٢] "،[٣] وهذا واضح فى أن الصدق دخل معيار البلاغة ، فهو مبدأ من مبادئ الدين الذى شكل ملامح المنهج النقدى البلاغى فى ذلك العصر ، ومن أجل هذا ، فقد سجن الحطيئة - وكان هجاء - نهاه عمر عن الهجاء فلم يمتثل ، فأودعه السجن حتى يفئ إلى رشده ، ولم يخرجه إلا بعد فترة حين توسل إليه بقصيدة شرح فيها حال أطفاله الصغار ، وأنهم تركوا بلا عائل يعولهم بعد أن أودعت عائلهم السجن فعفى عنه [٤] .

وحسبك أن أذكرك بمدى ما كان يتمتع به الفاروق عمر من صفاء حس ، ومعرفة كاملة بقيمة الفصاحة والبلاغة ، وذلك حين بلغه أن أخته قد آمنت ودخلت دين الإسلام ، ولم يكن قد آمن بعد فأسرع إليها ، ودخل البيت ، وكان بيدها صحيفة فانتزعها منها ، ونهرها حتى سال من وجهها الدم فإذا بالصحيفة آيات من أول سورة - طه - قرأها عمر ، ثم لم يلبث بعد قراءتها أن قال : أين محمد ؟ إنى ذاهب

---

١ - لا يعاظل بين الكلام : أى لا يجعل بيتا يركب بيتا آخر بمعنى أنه لا يحتاج إليه فى المعنى.
٢ - وهذا يدل على الصدق فى المدح لا المبالغة فيه .
٣ - ينظر : العمدة لابن رشيق جـ١صـ٧٦ ، وأضواء على مراحل البحث البلاغى صـ٢٠ .
٤ - ينظر : العمدة لابن رشيق حـ١صـ٧٦ ، وأضواء على مراحل البحث البلاغى صـ٢٠ .

إليه ، فلما وصل أعلن إسلامه ، وكبر المسلمون حوله ، وبـدأ عـهد جديد للدعوة الإسلامية فى مكة بدخول عمر الإسلام.

يعنينا من ذلك هنا أن نسأل : أين العنف الذى كان عليه عمـر ؟ ثم أين البطش الذى يعرف به ؟ ذاب كل هذا أمام فصاحة آسرة وبلاغة آخذة ، وإعجاز بيان أدركه عمر ، فلم يناقش ولم يسائل ولـم يجـادل ؛لأنه رأى يقينا لا نقاش معه ولا جدال فيه ، نفس أدركت هذا ووصلت إليه ، لابد أن يكون على جانب كبير من التذوق والإدراك والخبرة فـى البلاغة،حتى تدرك أن هذا ليس فى مقدور البشر فهو معجزة بحق [1].

وها هو ذا على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – الـذى تربـى أيضا فى رعاية سيدنا رسول الله ﷺ ومن كان كذلك أتته الفصاحة من كل جانب ، وسعت إليه البلاغة من كل فج ، ويكفى فى هذا المقـام أن نشير إلى أن أحد الأمراء سأل ابن المقفع الكاتب الشهير قائلا : مـن أين أتتك البلاغة ؟ فقال : من حفظ كلام على بن أبى طالب [2] .

وقد "قال على بن أبى طالب رضي الله عنه البلاغة : إيضاح الملتبسـات أو كشف عوار الجهالات بأسهل ما يكون من العبارات . وقريب منـه قول الحسن بن على رضي الله عنه البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفـاظ ..."[3] .

---

[1] – أضواء على مراحل البحث البلاغى صـ ٢٠ ، ٢١ .
[2] – السابق صـ ٢٢ .
[3] – الصناعتين لأبى هلال العسكرى – تحقيق د/ مفيد قميحة ص٦٣–ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ثانية سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ م .

على أن الأمر لم يكن مقصورا على الخلفاء الثلاثة السابقين (أبو بكر ، وعمر ، وعلى) وكذلك غيره من الصحابة الأجلاء وفى مقدمتهم ابن عباس - رضى الله عنهم جميعا - فهم كانوا أعلم الناس بما جاء فى القرآن الكريم ، وما ترمى إليهم تراكيبه من دلالات ؛ لأنهم كانوا يشافهون النبى ﷺ أفصح العرب أجمعين ، ويتلقون منه العلم والفقه فى أمور دينهم ، ونشأت طبقة من القراء تحفظ القرآن وتلم ببعض التفسير ، وكان ﷺ يبعث بهم إلى القبائل والبلدان المجاورة ، يعلمونهم القرآن ، ويفقهونهم فى أمور دينهم ، فقد أرسل مصعب بن عمير إلى المدينة قبل الهجرة ، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليقضى فيهم بكتاب الله أو بسنة رسول الله ﷺ أو باجتهاده إذا لم يجد نصا فيهما [1] .

[1] - من جهود اللغويين والمفسرين فى البحث البلاغى ص١٤ .

٣- البلاغة في العصر الأموى :

وفى العصر الأموى كثرت الملاحظات البيانية ، بسبب تحضر العرب واستقرارهم ، ورقى حياتهم العقلية وتطور فنونهم الأدبية ، وهذا يعنى أن البلاغة أخذت منحى جديدا نحو الرقى والازدهار .

لقد ازدهرت الخطابة بجميع أنواعها ازدهارا عظيما ، واشتهر فيها كثيرون كزياد ، والحجاج ، وزيد بن الحسين ، وصحار بن عياش العبدى الذى يروى أن معاوية أعجب بخطابته فسأله : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز ، فقال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطئ ، وتقول فلا تخطئ [1] .

وكذلك فى هذا العصر ظهرت الفِرَقُ وتعددت ، واتسع مجال جدلهم السياسى والعقدى . فقد كان هناك الشيعة ، والأمويون والخوارج . والزبيريون ، ومع نمو العقل العربى كان طبيعيا أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام ، وتكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان ، لاسيما وقد أصبحت الخطابة من الوسائل الإعلامية لكل حزب من الأحزاب السابقة يدافع بها عن موقفه ويرد على خصومه ، ويبسط حججه لإقناع غيره [2] .

---

[1] - ينظر : البيان والتبيين جـ١ص٩٦ والبلاغة العربية بين القيمة والمعيار به للدكتور سعد أبو الرضا ص٣٢ ط/ شركة الطوبجى للطباعة - أولى سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م.

[2] - ينظر : البلاغة العربية بين القيمة والمعيارية ص٣٣ .

وكذلك فى هذا العصر اتسع مجال الشعر ، وزاد نشـاط الشـعراء بتشجيع الخلفاء له برصدهم الجوائز على قدر براعة الشعراء ، فاشـتد التنافس بينهم ، وحرصوا على تخير المعانى والألفاظ ، بحيث تسـتميل القلوب وتؤثر فى العقول [١].

وصاحب ذلك التقاء الشعراء فى المســاجد والأنديـة والأسـواق وعلى أبواب الخلفاء ، فكثرت المحاورات بينهم من ناحيــة ، وبينــهم وبين سامعيهم من ناحية أخــرى ، وتنــاولت الأســاليب والمعــانى ، ورعاية مقتضى الحال ، والارتقاء بمستويات التعبير [٢] .

يضاف إلى ذلك أثر قيام سوق المربد فى البصرة وسوق الكناســة فى الكوفة ، وهما امتداد خصب للأسواق فى الجاهلية ، وقــد جذبـا شعراء هاتين المدينتين ، وكثيرين من الشعراء الذين وفدوا عليهما[٣].

بل إن بعضهم فى هذين السوقين كان يقبح قول البعــض ، وهــذا كان من العوامل المثيرة " للنقائض " فى هذا العصر ، تلــك النقــائض التى يمكن أن تكون تطورا لفن الهجاء الجــاهلى ، ويرجــع الفضــل لجرير والفرزدق ، ومن تصدى لهما من الشعراء فى ســوق المربــد وغيره [٤] .

---

[١] – ينظر السابق .
[٢] – السابق ص ٣٣ .
[٣] – السابق ص ٣٤ .
[٤] – ينظر السابق ص ٣٤ .

وجملة القول : أن الملاحظات البيانية الدقيقة كانت قــد اتســعت وكثرت فى هذا العصر ، وأن هذه الملاحظات كانت قد أسهمت بــدور ملحوظ فى مرحلة تالية عندما جرى تأصيل البلاغة وتدعيمها [١] .

٤ البلاغة فى العصر العباسى :

وفى العصر العباسى نجد الملاحظات البلاغية تتسع أكثر وأكــثر عما كانت عليه فى العصر الأموى ، وقد ساعد على ذلك تطور الشــعر والنثر مع تطور الحياة العقلية والحضارية ، وبيان ذلك : أن كثيرا من الفرس والموالى أتقنوا العربية ، وحذقوها واتخذوهــا لســانهم فــى التعبير عن عقولهم ومشاعرهم ، وأظهروا فى ذلك براعــة منقطعــة النظير ، وتعاونوا مع العرب على النهضة بالنثر والشــعر ، فتطــور النثر تطورا رائعا ، إذ نشأ فى هذا العصــر النــثر العلمــى الخــالص واستوعب آثارا أجنبية كثيرا نقلت إليه ، منها الأدبى ، ومنها السياسى ، ومنها الفلسفى ، ويكفى فى ذلك أن نذكر أن ابن المقفــع المتوفــى سنة ١٤٣هـ قد ترجم عن الفارسية كتبا تاريخية مختلفة ، وأخــرى سياسية وأدبية ... واتسعت الترجمة بعده ، وأسست لها دار الحكمة

---

١ - ينظر السابق ص ٣٥ .

، وأكب المترجمون من السريان وغيرهم ينقلـــون الـــتراث اليونـــانى والفارسى والهندى [١] .

وأما الشعر فقط تطور كذلك ، وأخـــذ الشـــعراء يوازنـــون بيـــن معانيهم ، ومعانى القدماء ، وحاولوا أن يثبتوا تفوقـــهم عليـــهم ، أو على الأقل أنهم يجارونهم فى بعض بدائعهم ، ولا يتخلفـــون عنـــهم ، ومن خير ما يصور ذلك قول بشار : مازلت أروى فـــى بيــت أمـــرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ∴ لدى وكرها العناب والحشف البالى

إذ شبه شيئين بشيئين حتى صنعت :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ∴ وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وبون شاسع بين بيت أمرئ القيس ، وبيت بشار ، فهذا صنع حضـارة ، وذاك صنعه بداوة ، بشار صنع صورة التحمت فيها الأجـــزاء حتـــى صارت شيئا واحدا ، ثم فى الطرف الثانى كذلك ، بل إنه بتركيبه كـــاد أن يخرجه من حيز الحقيقة إلى حيز الخيال -إذ لم نـــر ليـــلا تـــهاوت كواكبه [٢] .

ولقد كان الشعراء فى هذا العصر يراجـــع بعضـــهم بعضـــا فـــى النوادى والمجالس الأدبية التى كانوا يعقدونها ، وكانوا يبدون فى ثنايا

---

١ - ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ص١٩ ، ٢٠ .
٢ - أضواء على مراحل البحث البلاغى ص٣٥ ، ٣٦ .

مراجعاتهم كثيرا من الملاحظات على المعانى ، وصحتها وفســـادها ، والألفاظ ، وغثائها [١]،ومن ذلك ما روى من أن أبا نواس أنشد مسلما قوله فى الصباح :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا ∴ وأمله ديك الصباح صياحا

فقال له مسلم : لم أمله ديك الصباح ، وهو يبشـــره بـــالصبوح الذى ارتاح له ؟ فقال له أبو نواس ، فأنشدنى أنت : فأنشده مسلم :

عاصى الشباب فراح غير مفند ∴ وأقام بين عزيمة وتجلد

فقال له أبو نواس : ناقضت : ذكرت أنه راح ، والرواح لا يكـــن إلا بانتقال من مكان إلى مكان ، ثم قلت : وأقام بين عزيمة وتجلـــد ، فجعلته متنقلا مقيما ، وتشاغبا فى ذلك [٢] .

وعلى هذا ظل الشعراء فى الميدان ، فهم أهل هـــذه الصناعـــة ، وهم أمراء البيان ينقد بعضهم بعضا ، ويستدرك بعضهم على بعض ، مما يعطى للبحث البيانى شأنا يندفع به إلى الأمـــام ، وإلـــى النضـــج والتمام وراء تلك الملاحظات التى لاتنتهى ، كما أن الحياة الاجتماعيـــة فى هذا العصر كان قد دخلها الترف ، وطرأت عليها الصنعة فـــى كـــل مظاهرها ، فالمعيشة قد تبدلت ، فلم يعد الخباء ولا البيت المتواضــــع كما كان الحال فى العصريين الجاهلى والأموى ، وإنما قـــامت المـــدن

---

[١] – دراسات فى البلاغة العربية للدكتور محمود شيخون ص١٥ .
[٢] – الموشح للمرزبانى ص٣٦ وما بعدها .

وأنشئت القصور ، ودخل التفنن فى الطعام والشراب واللباس ، بل وفى اللهو والمجون والعبث ، والشعر مرآة كل عصر ، وصدى لما يدور فيه ، ولا جرم أن نجد فى الشعر هذا التفنن العارض عروض التفنن فى الحياة [١] .

وبجانب الشعراء والكتاب الذين كان لهم دور بارز فى مسيرة البحث البلاغى فى العصر العباسى على ضوء ما تقدم كان معهم فريق آخر له دوره ، هم اللغويون والنحاة ، فقد قاموا بالمحافظة على اللغة وقواعدها ، كانوا يعلمون الناس هذه القواعد وطرق الاشتقاق ، يؤيدون ذلك بما يروون من أشعار القدامى شارحين لها ، مستنبطين منها أصول اللغة العربية ، محببين الشباب فى هذا الشعر القديم ، وفى طرق التعبير فيه ، واقتضى هذا بطبيعة الحال أن يبينوا ما يحفل به هذا الشعر من طباق وجناس وتشبيه ، وتقديم وتأخير ، وذكر وحذف وتعريف وتنكير ، وخبر واستخبار ، وغير ذلك من ألوان بلاغية أخرى ، ذكرها سيبويه فى كتابه ، واعتمد عليها الإمام عبد القاهر الجرجانى فى آرائه مسترشدا بما جاء فى الكتاب لسيبويه ذلك العالم النحوى المعروف الذى كان موجودا فى ذلك العصر [٢] .

---

[١] – أضواء على مراحل البحث البلاغى ص٣٧ ، ٣٩ .

[٢] – أضواء على مراحل البحث البلاغى ص٣٩ ، ٤٠ .

ومن النحويين الذين كانوا فى ذلك العصر أيضا الفراء صـــاحب كتاب (معانى القرآن) المشهور له ، والذى شرح فيه الآيات القرآنية ، مبينا معنى العبارات ، موضحا ما فيها من تقديم وتـــأخير ، وإيجـــاز وإطناب ، وغير ذلك بما يتفق وأوليات البحث التى لا تفـــى بـــالغرض على أكمل وجه [١].

وفى الوقت نفسه كان أبو عبيدة ذلك العالم اللغـــوى المشـــهور الموسوم بـــ (معمر بن المثنى) الذى قام بتـــأليف كتابـــه المعـــروف بـــ (مجاز القرآن) فى ذلك العصر ، ولم يعن بذلك المجـــاز الـــذى يقابل الحقيقة ، وإنما قصد بكلمة (مجاز) معناهـــا اللغـــوى ، وهـــو تفسير الآية وتأويلها على الوجه المراد ، ولذا فقد اختار الآيات التـــى تحمل أكثر من دلالة ، وقد قرب هذا إلى القارئ بذكر ما يماثلـــه ممـــا يحتمل من أشعار العرب .

وكان يعاصر هؤلاء الأصمعى ، وهو حجة فى اللغـــة العربيـــة ، وكان له بصمات ظلت فى كتب البلاغة حتى يومنا هذا ، حيث إن كتـــب التراجم ذكرت أن له كتاباً فى التجنيس ، وتحدث كذلك عن المطابقـــة ، وكان له رأيه الخاص بشأنها ، وأيضا أشار فى كتاباته إلى الالتفـــات والإيغال والمبالغة ، وغير ذلك من الألوان البلاغية الأخرى . [٢]

---

١ - السابق ص ٤٠ .

٢ - ينظر : السابق ص ٤٠ ، ٤١ .

وبجانب هؤلاء وأولئك فى ذلك العصر كان المتكلمون الذين كان لهم دور بارز وخطير فى حقل البحث البلاغى ، وهــؤلاء المتكلمــون كانوا فرقاً شتى يتحاورون فى معتقداتهم ، وكان كل فريق منــهم لــه مبادئ خاصة يحتج لها .

وفى سبيل ذلك كانوا يعلمون النشء الخطابة والمناظرة والجــدل ومقابلة الحجة بالحجة واستدعى كل ذلك فصاحة لسان وثبات جنــان وقوة بيان فأخذ كل فريق يعلم أتباعه ويدربه عليه .

ففريق يتولاه الحسن البصرى ، وآخر يتولاه تلميذه واصل بــن عطاء. وفريق ثالث كان على رأسه النظام ، كل هذه الفرق كانت علــى درجة عالية من المهارة فى الدفاع عن الإسلام ضــد مهاجميــه مــن اليهود والنصارى والمجوس والسريان والشعوبيين ، ودافعــوا كذلــك عن القرآن الكريم وإعجازه ضــد الأعــداء والمتشــككين ، فراحــوا يكشفون عن سر الإعجاز فى القرآن الكريــم متســلحين بالفصاحــة والبيان ، موضحين - مع غيرهم - أساليب الذكر الحكيم ومــا تحويــه من بلاغة ليست فى مقدور البشر ، كما دفعهم هــذا الموقــف الــذى رصدوا أنفسهم له إلى التسلح أمام خصومــهم فــى العقيــدة أو فــى المذهب بما نقل إلى العربية من علوم وفلســفات كــانت لــدى الأمــم الأخرى ، فهم وإن لم يأخذوها كما كانت عند أهلها ، إلا أن مهارتــهم

فى ذلك أنهم تمثلوها ، فأفرزت لديهم خصوبة فكر وبعد نظر وسعة أفق ، مكنتهم من الظفر بخصومهم من هؤلاء وهؤلاء.

هذه المهارة ، وهذه الثقافة الواسعة ، كانت ثمرتها تأصيل فنون البلاغة ، سعياً بها إلى الاكتمال ، كى تصبح فنا له قضاياه ، وله غاية من وراء بحثها هى الوقوف على الإعجاز القرآنى وإدركه.(١)

---

١ - ينظر السابق ص ٤١-٤٣.

كيف تطورت البلاغة[١]

والآن نتحدث عن المراحل التى مرت بها البلاغة العربية حتى استوت علماً وفنا له أصوله وبحوثه ومؤلفاته فنقول :-

استمرت البلاغة على هذا النحو الذى ذكرت إلى أن اتسعت الفتوحات الإسلامية وامتزج العرب بغيرهم من الأمم وفسدت الأذواق والملكات وكثر الخطأ فى الأساليب العربية ، فكان ذلك باعثاً على تدوين أصول وقواعد تعصم مراعاتها ألسنة الكتاب والأدباء من الخطأ فى الأساليب العربية فقام العلماء بوضع هذه الأصول مستعينين فى ذلك بالملاحظات البيانية والنقدية التى ظهرت فى العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام والعصر الأموى والعباسى ، ثم نمت هذه الأصول على مر العصور وتعددت أبحاثها . ونشأت حولها المؤلفات والبحوث فكونت ما يسمى بعلم البلاغة .

وقد عرف هذا العلم فى أول أمره بـ (البديع) ، واستمر كذلك حتى القرن السادس الهجرى فجاء السكاكى - رحمه الله - وقسم هذا العلم إلى ثلاثة أقسام (معانى وبيان وبديع)

ونستطيع أن نجعل المراحل التى مرت بها البلاغة حتى أصبحت علماً له أصوله وقواعده وبحوثه ومؤلفاته فى أطوار ثلاثة :-

---

[١] - ينظر : دراسات فى البلاغة العربية للدكتور/ محمود شيخون ص ٢٧ - ٣٣.

➢ <u>الطور الأول :-</u>

وهو طور المحاولة ، وقد كان عبارة عن محاولة أولـــى لفــهم أسرر بلاغة الكلام ، فقد أخذ الكتاب والأدباء والنقاد يحاولون فى هــذا الطور فهم هذه الأسرار ، فوضعوا أصولاً موجزة تحدد أراءهـــم فـــى جمال الأسلوب ، ولقد أشترك فى النهوض بهذا العبء مـــن العصـــر الأموى كثير فى مقدمتهم أئمة الشعر والخطابـــة وفحـــول الكتـــاب ، .ورواة وعلماء الأدب من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ورجـــال النقد والأدب الذين جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى .

ونشأت من ذلك آراء كثيرة فى البلاغة ، يجد الباحث بعضها فـــى البيان والتبيين للجاحظ ،والكامل للمبرد ، وزهـــر الآداب للحصـــرى ، والعقد الفريد لابن عبدربه .

➢ <u>الطور الثانى :-</u>

ويسمى بطور التأليف ، وفيه ألفت كتب تجمع كثيراً مـــن الآراء ، والدراسات الموجزة حول البلاغة وبحوثها ، ومن أهم هذه الكتب :

١- جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، ففى مقدمتـــها بحـــوث تتصل بالبلاغة .

٢- البيان والتبيين للجاحظ ، وهو من اهم ما ألف فى هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب شـــعراً ونـــثراً ، وتتعـــرض لتحديـــد

البلاغة ، وما حولها من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة ، ويتكلم على السجع ، ويشير إلى التفصيل والتقييم ، والاستطراد والكناية والأمثال والاحتراس والقلب ، وأسلوب الحكيم ، والجاحظ هو أول من تكلم عن المذهب الكلامى .

٣- قواعد الشعر لثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ.

٤- مجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

٥- إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه للواسطى المعتزلى المتوفى سنة ٣٠٦هـ.

٦- نظم القرآن لابن الاخشيد ، وكذلك لابن أبى داود المتوفى سنة ٣٢٦هـ.

٧- كتاب الرد على من نفى المجاز فى القرآن الكريم للحسن بن جعفر.

الطور الثالث :-

وفيه بدأ التدوين فى البلاغة بتأليف ابن المعتز كتابه البديع ، وانتهى هذا الطور بظهور عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ.

➢ **وأهم ما ألف فى بحوث البلاغة فى هذا الطور :**

١- البديع لابن المعتز المتوفى ٢٩٦هـ ، وقد ألف الكتاب سنة ٢٧٤هـ ، وقد ذكر فيه مؤلفه ألوان البديع وهى : الاستعارة - التشبيه - التجنيس - المطابقة - رد العجز على الصدر - المذهب الكلامى - الالتفات - الاعتراض - الرجوع - حسن الخروج - تأكيد المدح بما يشبه الذم - تجاهل العارف - حسن التضمين - التعريض والكناية - لإفراط فى الصفة - لزوم ما لا يلزم ، وهذه الألوان كلها هى موضوعات علم البيان والبديع .

٢- نقد الشعر لقدامه ، متوفى سنة ٣٢٧هـ ، وقد تكلم فيه على أسباب الجمال وأسباب القبح فى الشعر وعناصره .

٣- نقد النثر - لقدامة بن جعفر وهذا الكتاب صورة قوية لفهم قدامة للبلاغة وأقسام الكلام ، وألوان الأساليب ، وقد تأثر فيه بذوقه وثقافته اليونانية معاً .

٤- الصناعتين لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ ففيه تحديد البلاغة وأوصافها ، وشرح الآراء فيه ، وفيه ذكر لألوان البديع وللسرقات الشعرية ، وقد تأثر فيه أبو هلال بالجاحظ وابن المعتز وقدامة .

٥- الموازنة للآمدى .

٦- الوساطة للجرجانى .

٧- إعجاز القرآن للباقلانى .

٨- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

٩- العمدة لابن رشيق .

ثم جاء بعد هذا الطور أبو بكر عبد القاهر الجرجانى رائد البلاغة العربية والمتوفى سنة ٤٧١هـ فألف كتابين عظيمين فى البلاغة هما:

١- أسرار البلاغة :-

وفيه دراسات تتناول بحوث علم البيـان مـن تشـبيه ومجـاز واستعارة ، وفيه أيضا شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢- دلائل الإعجاز :-

وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى ، وتحدث فيـه عبـد القاهر أيضاً عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسـرقات وهذه البحوث كلها هى عنده علم البيان .

ثم جاء بعد عبدالقاهر كثيرون من البلغـاء أمثـال الزمخشـرى والرازى وضياء الدين بن الأثير ، وبدر الدين بـن مـالك والتوخـى صاحب الأقصى القريب ، ومن أهم هؤلاء البلغاء أبو يعقوب السـكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ صاحب كتاب المفتاح ، وقد جعل كتابه أقسـاماً وخص البلاغة بالقسم الثالث وقسمها ثلاثة أقسام (المعانى والبيـان والبديع) وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل منها بالتفصيل .

وبظهور كتاب المفتاح انتهت مراحل التأليف والتدوين والابتكار في بحوث البلاغة ، ثم جاء بعد السكاكى عالم جليل هو الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩هـ فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما:-

١- تلخيص المفتاح .

٢- الإيضاح - وقد ألفه ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح ، وجمع فيه كثيراً من آراء عبد القاهر والسكاكى فى شئ من التنظيم والشرح.

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشى والتقارير .وفى مقدمتها الأطول لعصام الدين الحنفى ، والمطول للسعد ، وشروح التلخيص ، وغيرها ثم ظهرت مؤلفات جديدة فى البلاغة فى عصر الحواشى ، من أهمها الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ، وعقود الجمان للسيوطى ، كما ظهرت فى العصر الحديث عدة مؤلفات فى البلاغة فيها لون من التهذيب ، والتنسيق وحسن الاختيار.

وبذلك تنتهى مراحل التأليف فى البلاغة منذ نشأتها حتى الآن .

أبرز العلماء

الذين أسهموا في تطور

الدراسات البلاغية

على مر العصور

أبرز العلماء الذين أسهموا فى تطور الدراسات البلاغية .

على مر العصور

ذكرنا أن النقد كان من الأسس التى اعتمدت عليها البلاغة فـــى نشأتها وتحدثنا إجمالا عن جهود كثير من طوائـــف العلمـــاء الذيـــن أسهموا بجانب لا بأس به فى إثراء الدراسات البلاغية ، ومـــع ذكـــر أشهر العلماء الذين كان لهم مؤلفات أدبية تناولوا فيها جوانب البحوث البلاغية المتفرقة التى ساهمت فيما بعد فى وضع مؤلفات مستقلة على يد بعض العلماء ، وسنذكر ذلك هنا بشىء من التفصيل :-

من أقدم الكتب التى بدأت تتكلم عن أمور خدمت البلاغة فيما بعد كتاب مجاز القرآن الكريم ، وقد وضعة أبو عبيدة معمر بـــن المثنـــى المتوفى سنة ٢٠٩ هـــ عندما سأله رجل فى مجلس الفضل بن الربيـــع عن قوله تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ)[1] قائلا : إنمـــا يعـــرف الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف ؟ فأجابه أبو عبيـــده : بأن رب العزة – جل جلاله – كلم العرب على قـــدر كلامـــهم ، أمـــا سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفى مضاجعى ∴ ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

---

[1] – سورة الصافات الآية / ٦٥.

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهمهم أوعدوا به ، وعزم أبو عبيدة على أن يضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه ، وألف كتاب : مجاز القرآن .[1]

والجدير بالذكر أن أبا عبيدة لم يكن يعنى بالمجاز معناه المعروف فى اصطلاح البلاغيين اليوم ، وإنما قصد إلى بيان المعانى المرادة من الآيات الكريمة .

لأن هذه المصطلحات لم تكن تبلورت فى الأذهان بعد ، على كون هذا استعارة أو كناية .. الخ ، كما ظهر إلى الوجود أيضا كتاب معانى القرآن لفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وفيه بعض الملاحظات التى تتعلق بعلم البلاغة ، فكان يشرح الآيات ، ويبين معنى العبارات ، موضحاً ما فيها من تقديم وتأخير ، وإيجاز وإطناب وتشبيه ، أو غير ذلك بما يتفق وأوليات البحث ، وإن لم يكن فى شرحه وبيانه وفاء بالغرض على أكمل وجه[2].

وفى القرن الثالث الهجرى وضع الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ كتابه البيان والتبيين "وكتاب الحيوان ، ويعد الجاحظ أول من تناول فى كتابه كثيراً من مسائل البلاغة الفنية التى كانت القاعدة لمن جاء بعده

---

[1] – وفيات الأعيان ١٣٨/٢ط / بولاق.

[2] – ينظر : أضواء على مراحل البحث البلاغى للدكتور/ محمد جلال الذهبى ص ٤٠ ط ـ دار الاتحاد التعاونى للطباعة والنشر ـ أولى ـ غير مؤرخة.

، ولذا فإن من العلماء من يعتبره مؤسس البيان العربى بما جمعه من النصوص .[١]

وبالرغم من أن كلامه عن البلاغة والبيان جاء متفرقا فى ثنايا كتبه دون أن يجمعها فى باب واحد ، فقد قدم المادة والمصطلح ، وذكر كثيراً من الشواهد والتحليلات التى أفادت منها كتب فى البلاغة بعد ذلك .

ومن أبرز ما أثاره الجاحظ من مصطلحات بلاغية :-

فصاحة الكلمة والكلام ، وذكر أنة لابد للكلمة من تبرئتها من تنافر الحروف وأن تكون مألوفة واضحة ، وتحدث عن مراعاة مقتضى الحال واللفظ وانتقائه ، والتوفيق بين اللفظ والمعنى ، كما تكلم عن معنى البيان وأورد كثيرا من التعريفات المختلفة لمعنى البلاغة ،وذكر التشبيه والمجاز والايجاز والإطناب[٢] .. الخ وأورد لكل ذلك الكثير من الأمثلة من تراثنا الأدبى.

---

١ - وفيات الأعيان : ١٣٨/٢ ط / بولاق.

٢ - ينظر البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون ، جـ١ ، ص ٤٧ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ١١٦ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ٢٠١ ط ، مطبعة الخانجى بمصر ١٣٩٥هـ ١- ١٩٧٥م .

وتحدث عن البديع ، وذكر كثيراً منه كالسجع ، وأسلوب الحكيم والاقتباس والمذهب الكلامى مع ذكر الكثير من الشواهد[١].

ولاشك أن الناظر فى كتابه يجد كل هذه المسائل لكنها مبثوثة متفرقة ، ولا يتسع الوقت لسردها بالتفصيل.

ومن الكتب التي كان لها دور بارز فى خدمة البلاغة العربية كذلك : كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، والذي ذكر فى مقدمة كتابه أن الغرض من تأليفه هو الدفاع عن القرآن والذود عنه ضد مطاعن الملحدين الذين ، لغوا فيه وقاموا بتحريف الكلم عن مواضعة ، وعابوا عليه بقولهم مرة هو سحر ، وأخرى : هو من قول الكهنة ، وثالثة بأنه أساطير الأولين [٢] .

هذا وقد عرض بن قتيبة فى كتابة المذكور لكثير من المطاعن التى يوجهها الملحدون إلى القرآن الكريم ، مشيراً إلى أن بعضها يرجع إلى الاختلاف فى القراءات ، والبعض الأخر يرجع إلى الآيات المتشابهة من الكتاب العزيز التي لا يقف على معناها أو المراد منها إلا الراسخون فى العلم ، وقام ابن قتيبة بالرد على هذه المطاعن

---

١ - ينظر البيان والتبيين ، جـ٢ ، ص٩٦، ٢٠١ ؛ جـ٣ صـ ٢٤٢ ، جـ ١٨٣ ، جـ ٢ صـ ٦٧٤ ، جـ ٣ صـ ١٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ط / المطبعة الأزهرية .

٢ -ينظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق / إبراهيم شمس الدين صـ٢٣،٢٤ نشر / دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - غير مؤرخة .

جميعها عارضاً لحل مشكلات القرآن اللغوية والأسلوبية ، بأسلوب ينم عن مقدرته البارعة على الفهم لمحكم القرآن ومتشابهة .[١]

كما عرض ابن قتيبة فى ثنايا كتابه لكثير من المصطلحات البلاغية كالمجاز ، والاستعارة ، والتمثيل والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والذكر ، والكناية ، والتكرار ، والإيجاز ، والتفصيل ، والإيضاح ، والإظهار ، والقلب ، ومخاطبة الواحد بخطاب الجمع ، ومخاطبة الجمع بخطاب الواحد ، والالتفات ، ومخالفة ظاهر اللفظ لمعناه ، والتورية ، وغير ذلك من المسائل البلاغية [٢] التى اعتمد عليها البلاغيين الذين قاموا بالتميز بين علوم البلاغة الثلاثة (المعانى والبيان والبديع) .

ومن أشهر من ألف كتبا تناولت مسائل من هذا الفن أيضا فى هذا القرن المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ فى كتابه الكامل فى اللغة والأدب ، وتناول فيه جوانب من مسائل البلاغة كالتقديم ، والتشبيه ، والكناية ، والاستعارة ، والمثل ، وغير ذلك ، ووقف أمام كثير من النصوص ينتقد ألفاظها وتراكيبها إلا أن كتابه غلب عليه طابع النحو والأدب .[٣]

---

١ - ينظر السابق صـ ٢٤: ٦٨.
٢٢ -ينظر : السابق ص ٦٩:٣٠٩
٣ - ينظر : الكامل للمبرد جـ ١ صـ ١٨٣ ، جـ ٢ صـ ٦٧٤ ، جـ ٣ صـ ١٧،٤٤،٤٥ ، المطبعة الأزهرية .

ومن أشهر المؤلفين من كتابنا فى هذا القرن الشاعر الأمير عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ الذى وضع كتابه البديع سنة ٢٧٤ هـ تناول فيه العديد من أبواب البلاغة التي تشمل علومها الثلاثة ، وقد أطلق لفظ البديع بمعناه العام دون المعنى الاصطلاحى المعروف لنا الآن ، وقد قسم الكتاب إلى قسمين

الأول : البديع ، والقسم الثانى : المحاسن ، وجعل البديع متناولاً خمسة أبواب هى :-

الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى .

وأما المحاسن فهى الالتفات ، والاعتراض ، وحسن الرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما شبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط فى الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما يلزم ، وحسن الابتداء .

ومن الملاحظ أن هذه الأبواب التى أدمجت تحت البديع والمحاسن ، بعضها يندرج تحت علم المعانى وبعضها تحت البيان كما لا يخفى .

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد أفاد من جاء بعد ابن المعتز كقدامة بن جعفر ، وأبو هلال العسكرى ، والآمدى ، وابن رشيق ،

ويعد العلماء هذا الكتاب أول خطوة علمية فى دراسة البلاغة فى كتاب مستقل.

والسبب فى وضع هذا الكتاب هو الردُّ على من زعم أن البديع أمر جديد فى الأدب العربى وبيان أنه موجود فى الأدب العربى من قديم .

وفى القرن الرابع الهجرى كان من أبرز العلماء قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) صاحب كتاب نقد الشعر ، وقد تناول فى هذا الكتاب كثيراً من المحسنات البديعية بالمعنى العام للبديع من كون هذه المحسنات أوصافاً للشعر ومما ذكره من هذه المحاسن الترصيع والتصريح ، والغلو والتشبيه ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير ، وصحة المقابلة ، والمبالغة ، والالتفات والإشارة ، والإرداف ، والتمثيل ...الخ .

ومن أبرز من ألف كتباً تناولت العديد من رسائل البلاغة فى هذا القرن الآمدى "الحسن بن بشر المتوفى سنة ٢٧١ هـ " صاحب كتاب " الموازنة بين أبى تمام والبحترى " وقد عرض لكثير من النصوص ، ثم شعرهما ، وغيره موازناً بين كل منهما .

وكذلك القاضى الجرجانى ت (٣٩٦هـ) فى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وقد أورد فى الكتاب كثيراً من المصطلحات التى

تخص فى البلاغة كالتشبيه والاستعارة ، وعرض بإفاضة كثـيراً مـن المسائل النقدية التى أظهر من خلا لها عيوب الشعر ومحاسنه .[١]

وجاء بعد ذلك أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ بكتابه الصناعتين " صناعة الشعر والنثر " الذى يعد أول كتاب له الأهمية فى ميدان البلاغة ، ونقطة تحول النقد إلى بلاغة ، وقد أمتلأ هذا الكتـاب بالحديث عن أنواع كثيرة من الفنون البلاغية ، فقد تكلم عن الفصاحة والبلاغة والإيجاز ، والإطناب ، وأجود الكلام وأردئه ، وحسن التأليف ، والتشبيه الجيد ، والردئ والاستعارة ، والتجنيس ، والمقابلة ، والمبالغة ، والمماثلة .

والجدير بالذكر أنّ أبا هلال قد استفاد كثيراً ممن سبقه ، وخاصة الرمانى (ت ٣٨٦ هـ) فى كتابه النكت فى إعجاز القـرآن ، كما تحدث عن السرقات الشعرية ، واعتمد فى كتابه على المنهج التعليمى التقليدى من حيث التعاريف ، والتقاسيم ، وقد أضاف إلى ما ُعرف من فنون البديع حوالى سبعة انواع أخرى ليصل عدد أنواع البديع عنـده إلى خمسة وثلاثين لونا.

ومن البارزين فى مجال الدراسات البلاغية فـى أوائـل القـرن الخامس الهجرى الباقلانى ت/ ٤٠٣هـ فى كتابه إعجـاز القـرآن .وصنعه لبيان وجه إعجاز القرآن الكريم ، فقد تناول فيه كثـيراً مـن

---

١ - ينظر : الوساطة صـ ٤١ طـ - الحلبى .

خطب العرب وشعرها ؛ ليدل على أن القرآن له سمات خاصة في التعبير لأنه لم يرتق إلى مرتبته أي كلام بشري . ومن خلال عرضه لهذه النماذج تكلم عن مزايا البلاغة كالتشبيه والاستعارة [1]وغير ذلك:

وجاء بعد ذلك الشريف الرَّضى (ت ٤٠٦ هـ) ؛ ليضع لنا كتابين في البلاغة هما :-

١- تلخيص البيان عن مجازات القرآن . وفي هذا الكتاب عرض للآيات القرآنية التي خرجت عن معناها الحقيقي الي معنى آخر مجازي . وذكر ذلك بصورة مجملة ، فلم يتعرض لنوع المجاز فيما ذكره من كونه تشبيهاً أو استعارة أو كتابة أو مجازاً مرسلاً على نحو ما عرف بعد ذلك في الدراسات اللاحقه .

٢- كما وضع كتاباً آخر أسماء المجازات النبوية ، جمع فيها الكثير من أحاديث النبى ﷺ سائراً في ذلك على نفس المنهج الذى سلكه في مجازات القرآن.

وللقاضي عبدالجبار المتوفى سنة ٤١٥هـ كتاب المغني في أبواب التوحيد تكلم فيه عن العديد من مسائل البلاغة .

وممن كان له باع طويل في هذا الميدان كذلك ابن رشيق القيراوني سنة ٤٦٦هـ الذى وضع كتاب العمدة في محاسن الشعر

---

[1] - ينظر : إعجاز القرآن للباقلاني صـ ١٠٥ ، ١٠٦ ط - صبيح

وآدابه ، وتأليف الكلام ، وتكلم في خلال ذلك عن المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه ، وذكر الكثير من أنواع البديع المعروفة .

وجاء ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦هـ صاحب كتاب سر الفصاحة الذى تحدث فيه عن أصول وقواعد بلاغية ظلت تتداول حتى الآن في مؤلفات البلاغة ، ومن أبرز هذه الأصول : حديثه عن البلاغة والفصاحة التى انتفع بها كل من جاء بعده ، كما تكلم عن الإيجاز وغيره .

ثم جاء إمام البلاغين بحق .. العالم النحوى عبدالقاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ تلك القمة التى لا تقارن بغيرها ، فقد أنفرد بالاتجاه التحليلى النقدى وذلك بتعمقه فى عرض المسائل والبحث عن العلل والأسباب التى تؤيد صدق ما يذكره ، مع الإكثار من الشواهد ، والإلحاح على الفكرة ، وإعادتها أكثر من مرة بأكثر من أسلوب لتكون قريبة الفهم .

وامتاز عبدالقاهر بذوقه وحسه المرهف .. فقد قام بعرض وتحليل النظم القرآنى للوقوف على دقة إعجازه .

ويذكر العلوى المتوفى سنة ٧٤٩هـ صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة أن عبدالقاهر واضع علم البلاغة ، وقد وضع ، البلاغة كتابين : الأول : كتاب : دلائل الإعجاز ، وقد أحدهما تناول ائل علم المعانى فتكلم عن دقة النظم ، والعلاقات التى تربط بين

الجمل ، وبنى الكتاب كله على إثبات أن بلاغة الكلام ترجع إلى النظم الذى هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم ؛ ليصل من ذلك إلى أن إعجاز القرآن الكريم كان بسبب حسن نظمه وجودة تأليفه .. إلخ ، وقد اشتمل الكتاب على مسائل علم المعانى من التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والإيجاز والفصاحة والبلاغة .. الخ كما تكلم عن الكناية والاستعارة أيضا.

أما كتابه الثانى : إسرار البلاغة فقد تناول فيه بالتفصيل مسائل علم البيان من التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز ، وتكلم كذلك عن أنواع من البديع وبين حسن كل ذلك .

وكان اهتمام عبدالقاهر بالمعانى واضحاً ، وأكد على ضرورة الالتزام بالجودة الفنية ، وأن الحكم هو الذوق فيما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصنعة من إحساس بجمال لفظ فى موضع خاص أو فطنة إلى قوة رابطة أو أداة فى جملة أو لبيت شعر دون غيرها.

ولا يزال منهج عبدالقاهر إلى اليوم محط أنظار النقاد والأدباء . وقد لخص الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ كتابى عبدالقاهر فى كتاب أسماه نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز.

وفى القرن السادس جاء العلامة جار الله الزمخشرى ت سنة ٥٣٨هـ الذى وضع كتابه الكشاف فى التفسير ، والذى اعتمد فيه على ما قدمه عبدالقاهر من دراسة لمصطلحات علوم البلاغة ، وقام

بتطبيق تلك المصطلحات على كتاب الله – سبحانه وتعالى – للكشف عن أسرار إعجاز القرآن ، وأنه كان ببلاغته وفصاحته ، فتناول الكثير من التشبيه والتمثيل ، وتكلم عن أسرار الفصل والوصل ، والقصر ، والتقديم والتأخير ، والإيجاز والفصاحة ، والبلاغة ، والكناية وغير ذلك عارضاً كل ذلك بصورة تطبيقيه على ما احتوته الآيات الكريمة من هذه الألوان .

وفى أوائل القرن السادس الهجرى يأتى السكاكى م سنة ٦٢٦ هـ بكتابه مفتاح العلوم الذى تناول فيه مجموعة من العلوم العربية كالنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والمنطق ، وقد جعل السكاكى القسم الثالث من كتابه خاصاً بعلوم البلاغة الثلاثة ، حيث قسم البلاغة إلى علم المعانى والبيان ومتمم لهما وهو علم البديع ، وقد أخذ كلام من سبقه من العلماء مثل عبدالقاهر ، والزمخشرى وغيرهما ، وأخذ هذه المصطلحات التى تناولها العلماء قبله ، ووضع لها القواعد والتقسيمات التى تضبط هذا الفن ، وجعله علما مستقلاً غاية الاستقلال.

وفى سبيل وضع هذه القواعد وضبطها ، كان لابد للسكاكى من الإقلال من ذكر الأمثلة ، سوالبعد عن التحليل والعرض الذى امتاز به من سبقه كعبدالقاهر .

والسكاكى وإن كان له الفضل فى ضبط قواعد البلاغة وتحديدها وتبويبها وتقسيمها إلا أنه يؤخذ عليه عدم الإكثار من الأمثلة وتحليلها كما يؤخذ عليه التعرض لكثير من النواحى الفلسفية والمنطقية ، عن طريق تقعيده لمصطلحات البلاغة ، وقد غلب عليه ذلك نظراً لثقافته التى تأثرت بالفلسفة إلى حد كبير .

وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم مجالاً خصباً للعلماء بعد عبدالقاهر ، أذ جمدت الدراسات البلاغية بعد ذلك ، ووقفت كثيراً عند تلخيص المفتاح ، أو شرحه ، أو وضع الحواشى ، والتقارير عليه ، والمكتبة العربية زاخرة بهذه الشروح والمختصرات .

وكان الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩هـ قد أولع بهذا الكتاب فوضع تلخيصاً للقسم الثالث من المفتاح فهذّبه وعدّل ترتيبه ،وزاد فيه بعض الشواهد ، ثم أتبعه بعد ذلك بكتاب آخر أسماه الإيضاح ، جعله كالشرح لهذا التلخيص ، ليوضحه ، ويذكر فيه ما تركه السكاكى من كتابى عبدالقاهر ، وامتاز الإيضاح بشئ من التفصيل ، وهو أفضل من أسلوب السكاكى ، وإن كان يسير على نهجه ، كما أن عبارته أسهل ، وشواهده أكثر .

ووضع سعد الدين التفتازانى م ٧٩١ هـ كتابه المختصر ، الذى اختصر فيه القسم الثالث من المفتاح ، ووضع أيضا كتابا أسماه ، " المطول " وقد شرح فيه تلخيص المفتاح ، وسلك مسلك التفتازانى

في شرح التلخيص كلٌ من بهاء الدين السبكي م ت / ٧٧٣هـ في كتابه " عروس الأفراح " وابن يعقوب المغربي م ١١١٠هـ في كتابه " مواهب الفتاح " إلى غير ذلك ، وكل هذه الكتب تسير على نهج السكاكي ، من حيث التقعيد ، والتبويب ، وخلط البلاغة بالكثير من المسائل الفلسفية ، مما أدى إلى تحول البحث البلاغي. إلى مجموعة من القواعد والضوابط ، دون الوقوف عند النماذج لتحليلها ، وكان ذلك العمل في حينه مناسباً لعصره ، وإن كان هناك من يعيب السكاكي على مسلكه في التقعيد والتبويب ، فإن له الفضل في حفظ قواعد البلاغة وضبط مسائلها.

وممن كان لهم جهد أيضا ابن الأثير ت / ٦٣٧ هـ صاحب كتاب المثل السائر الذي أشتمل على العديد من أبواب البلاغة وفصولها.

أما في العصر الحديث فقد ظهرت عدة كتب تدافع عن البلاغة العربية وضرورة تخليصها من الجمود والتعقيد الذي أصابها ، وعرضها في ثوب جديد رائق يجذب الناظر فيها ويغري بدراستها والاستفادة منها .

ومن أبرز هذه الكتب : " فن القول مناهج تجديد " للأستاذ أمين الخولي وكتاب " الأسلوب " للأستاذ أحمد الشايب ، " ودفاع عن البلاغة " ، للأستاذ / أحمد الزيات وغير ذلك .

➢ أهمية الدراسات البلاغية ووجه الحاجة إليها :

إن لدراسة البلاغة أهمية عظيمة لها ثمرتها التـي تعـود علـى دراسها بشكل واضح ، ويتمثل ذلك في:

(١) الوقوف على أوجه إعجاز القرآن الكريم ومعرفة أن سر فصاحته إنما يرجع فى المقام الأول إلى دقة نظمـه ، وحسـن ترتيبـه ، وجودة سبكه ، وبراعة تراكيبه ، ولطف إيجازه ، وعذوبة ألفاظه ، وما احتواه من صور بلاغية رائعة أعجزت أساطين البيان مـن العرب أن يأتوا بمثلها لأن القرآن الكريم كلام رب العزة ، ذلـك الكلام الذى " لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّـن حَكِيمٍ حَمِيدٍ " [١]

وصدق الله العظيم إذ يقول (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَـى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْـضٍ ظَهِيرًا) [٢].

ومن المعروف أن القرآن الكريم قد سحر ببيانه العـرب ، وهم مضرب المثل فى الفصاحة وطرق التعبير ، من شعر وغيره ، ولا يخفى علينا قصة الوليد بن المغيرة ، وهو على الشـرك حين سمع من الرسول ﷺ بعض آيات من كتاب الله فقال (إن له

---
١ - سورة فصلت الآية (٤٢) .
٢ - سورة الإسراء الآية (٨٨).

لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه) [١].

فمعرفة قواعد البلاغة والوقوف على إدراكها مما يساعد على ذلك ..

٢) معرفة الأسرار البلاغية التى احتواها التراث الخالد من أشعار العرب ونثرهم فى شتى صوره .

٣) تربية الذوق النقدى المرهف ، والملكة القوية التى يستطيع بها الفرد أن يدرك ببصيرة نفاذة جمال الصور البيانية الخلابة التى تعرض علينا ، متمثلة فى أساليب التعبير ، من شعر ، وخطابة ، ورسائل ، ومقالات ، وقصص ، فيتمكن الفرد من معرفة الجيد من الردئ من هذه الصور .

٤) تربية المملكة القوية التى يقتدر بها على التعبير فى شتى الأغراض ، والمساعدة على صنع كلام جيد.

٥) تقويم اللسان العربى . والمحافظة عليه من اللحن ، والإبقاء على لغته الأصلية حتى لا يتأثر بما جاوره من اللغات المختلفة ، خاصة بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم الذين دخلوا الإسلام ، وتعلموا اللغة العربية ، ومن هنا كان لابد من وضع القواعد

---

١ – ينظر : مقدمة الإمام الزمخشرى فى كشافة ط صـ ٦ ، ٧ والكشاف صـ ٦٣٦ وهو بصدد تفسيره لسورة المدثر.

الخاصة بتربية الملكات وإنمائها ؛ لتكــون تلــك القواعــد بمثابــة القوانين التى يرجع إليها عند إرادة الحكم على عمل أدبى من حيـث الرداءة والجودة ، ويقول أبو هلال العسكرى فى ذلك :-

إن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله – جـلى ثناؤه – علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، التى بــها يعــرف إعجــاز القرآن الكريم ، .. والإنسان إذا غفل علم البلاغة لم يقع علمه بإعجـاز القرآن .. وكذلك يجهل المرء الفرق بين الجيد والردئ مــن الكــلام ، ويجهل الاختيار الحسن ، وقديما قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله ، كما أن شعره قطعة من علمه ".

الدراسات حــــول

إعجاز القرآن الكريم

(الدراسات حول إعجاز القرآن الكريم)

تعددت الدراسات التى تتعلق بكتاب الله عز وجـــل ، فكـــل عـــالم تناول هذه الدراسة بما يخدم مجال تخصصه ، من مفسرين ، ولغويـيـن ، ونحاة ، ومتكلمين ، وغيرهم ، وقد وضِعَتْ عدة كتـــب ، ورســائل تناولت قضية الإعجاز وآراء العلماء فى ذلك ، وسنحاول إيجاز القــول فى ذلك عند بعض هؤلاء العلماء ، وقد تحدى الله العرب بـــأن يـــأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه فقال جلَّ شانه "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّـا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّنْ دُونِ اللَّـهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [١] وقد عجزوا عن معارضتـــه وهـــم النهايـــة فـــى الفصاحة والبلاغة ، والغاية فى الطلاقة ، مع توفر دواعيـــهم لذلـــك ، ولو حدثت تلك المعارضة لاشتهر ذلك ولكن أحداً لم يقل بذلك إطلاقـــا فبطلت المعارضة ولو تمكنوا من ذلك لما عرَّضوا أنفسهم للقتـــل مـــع سهولة المعارضة .

➢ **وسنتناول آراء العلماء فى الإعجاز بإيجاز كما يلى :-**

(١) مذهب الصرفة :-

وهذا رأى النظام وأبى اسحاق النصيبى ، وهما من المعتزلـــة ، واختاره الشريف المرتضى من الإمامية ، ويذكر الخطـــابى أن معنـــى ذلك أن الله صرف همم القوم عن أن يأتوا بمثله ، ولولا هذا الصـــرف

لكانوا قادرين على معارضته ، وصَرْفُ الهمم وتوجيهها لجهـــة غــير المعارضة يعد معجزة فى ذاته ؛ لأنه أمر خارق للعادة .

➢ **ويفسر العلوي معنى الصرفة بما يلى :-**

أ- سلب دواعيهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعـــي فـــى حقهم حاصلة مع التقريع بالعجز ، وتـــــرك المراتـــب العاليـــة ، والتكليف بالخضوع ومخالفة الهوى.

ب- أنهم سلبوا العلوم المطلوبة فى الإتيـــان بمـــا يقـــارب القـــرآن ويشاكله ، بمعنى أن الله أزال هذه العلوم عن أفئدتـــهم حتـــى لا تحصل المعارضة .

ج- أن الله منعهم قسْراً وألجأهم إلى عدم المعارضة ، مـــع كونـــهم قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك.

وهذا الرأي باطل لأنه يطعن فى الإعجاز ، لأن معنى صـــرف الله للعرب وسلبُهُم القدرة وتحديهم معناه: أن يُتركوا وقدرتهم حتى يثبـــت عجزهم ، مع ما توفر لهم من الأسباب والمقدرة على البيان ؛ ولـــذا فإن الخطابي يرفض هذا المذهب لتنافيه مع ما تدل عليه آية التحـــدي (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْـــلِ هَـــذَا القُـــرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا") [٢].

---

[١] -سورة البقرة الأية رقم ٢٣

[٢] سورة الإسراء الأية رقم ٨٨

فاجتماعهم متظاهرين معناه أن يعين بعضهم بعضاً ، ولا يتحقق ذلك العون إلا إذا كانت هممهم ومقدرتهم موجودة متعاونة للوصول إلى الغاية المنشودة وهى المعارضة .

كما يقول عبدالقاهر – لإبطال هذا الرأي – فلو أنهم أدركوا أنهم صاروا عاجزين لقالوا للرسول : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به ولكنك قد سحرتنا وحلت بما جئت به بيننا وبين مقدرتنا على معارضة وتذاكروا ذلك فيما بينهم وشكوه لبعضهم فقالوا :

ما لنا قد نقصت قرائحنا وكلَّت أذهاننا ؟ ولكن ذلك لم يحدث .

ولو كان الإعجاز بالصرفة لما قيل لهم : إنى جئت بما لا تقدرون على مثله ، وإنما يقال : أنى أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام تستطيعونه وأمنعكم أياه. [1]

-ولو كان القرآن معجزا بالصرفة لما استعظموا فصاحته ، وبلاغته ، وتعجبوا منها كما حدث مع الوليد .

-وكذا القول بالصرفة يؤدى إلى نقصان عقولهم وتغييرها ، ولم يقل أحد بتغير عقولهم بعد التحدي بل ظلت كما هي ، وظلت حالهم في البلاغة كما هي بعد نزوله ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله. [2]

[1] – ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ١٣٣.
[2] – راجع الطراز ٣ / ٣٩٤.

-ويذكر السيوطي وجها آخر للرد عليهم فيقول : لـــو صـــح القـــول بالصرفة لكان ذلك مقيدا بزمن التحدي ، ولكان القرآن بعد عصـــر النبوة غير معجز ؛ الانتهاء زمن الصرفة وكل هذه الأمـــور تظـــهر بطلان هذا المذهب .

٢) ويرى البعض أن القرآن معجز لاشتماله على الأمور الغيبية فـــي بعض اياتة كقوله تعالى(الم غُلِبَتِ الـــرُّومُ فِـــي أَدْنَـــى الأَرْضِ ... الآية) [1]وذكر المؤرخون أن الروم غلبت الفرس بعد تسع ســـنين من نزول الآية ، كما انتصر المسلمون فى نفس الوقت فى بـــدر ، ويذكر الخطابى[2] أنه لا يمكن الاقتصار على هـــذا وجعلـــه وجـــه الإعجاز ، ولكن يمكن أن يقال أن هذا نوع من أنواع إعجازه ؛ لأنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل القرآن حتى يكون الإعجاز راجعا إليه ، والمعروف أن الإخبار بالغيب وقع فى بعـــض الآيـــات دون بعض فيؤدى إلى خلو الآيات التي لم تشتمل على أمور غيبية مـــن الإعجاز .

٣- ويرى البعض أن إعجاز القرآن يرجع لأسلوبه المخالف لجميـــع أساليب الكلام كأسلوب الشعر أو الخطابة .

---

[1] سورة الروم الآتين (٢،١)

[2] - ينظر : ثلاث رسائل صـــ ٢٣ ، ٢٤.

ولا يرتضى العلوي ذلك إلا إذا كان المراد بأسلوب الكـــلام أسلوبه الخاص المشتمل على الفصاحـــة والبلاغـــة ، لا مطلـــق الأسلوب الذى يتساوى فيه القرآن مع غيره ، كما لـــم يرتـــض القول بأن الإعجاز راجع إلى خُلوِّ القرآن عن المناقضة والتعقيـــد ؛ لأن معنى ذلك أنه لو وجد فى الشعر أو النثر مقدار سورة مـــن القرآن خال من التعقيد والمناقضة لقيل : إن هذا معجز كـــالقرآن وهذا باطل ، وقد ثبت تعجبهم من حسن نظم الكلام.

٤) ويرى البعض أن وجه الإعجاز راجع إلى اشـــتمال القـــرآن علـــى الحقائق والأسرار التى لا تزال غضه طرية لا تنتـــهى علـــى مـــر الدهر.

-كما يرى البعض أن إعجاز القرآن يرجع إلى اشتماله على الاستعارة ، والتشبيه ، وغير ذلك من الأمور البلاغية ، وقيـــل معجـــز بمـــا تضمنه من مزايا بديعة فى فواتحه ومقاصده ، وخواتيمه فـــى كـــل سورة [١] ، ويمكن جعل هذه الأمور داخلة فى الإعجاز لا أن يكـــون كل أمر منها مستقلا بذاته ليكون هو الوجه فى الإعجاز دون غيره.

٥) والمذهب الحق فى ذلك هو : القول بأن القرآن معجز بحسن نظمـــه ، وفصاحته ، وبلاغته التى فاقت تصورات البشر ، وتنقطع دونـــها

---

١ - راجع الطراز ٣٩٥ - ٤٠٥.

أطماعهم . ويفسر ذلك العلوى فيقول : إن الجهابذة من أهل هـــذه الصناعة قد عوّلوا على ثلاث خواص جعلوهـــا هـــى الوجـــه فـــى الإعجاز .

الخاصية الأولى :

الفصاحة فى ألفاظه ، وخلوها من التعقيد ، والثقل ، وخفتها على الألسنة ، وجريانها عليها كأنها السلسال رقَّة وصفاءً وعذوبة وحلاوةً.

الخاصية الثانية :

البلاغة فى المعانى بالإضافة إلى مضرب كل مثل مساق كل قصة وخبر ، وفـــي الأوامـــر والنواهـــي ، وأنـــواع الوعيـــد ، ومحاســـن المواعظ..الخ

والخاصية الثالثة :

جودة النظم وحسن السياق ، فقد نظم على أتم نظام ، وأحسـنه ، وأكمله ، ويدل على ذلك كون التحدى وارداً على جهة الإطـــلاق ولـــم يقتصر على جهة خاصة من ذلك دون الأخرى ، وإنما قال الله – عـز وجل –: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُـــورَةٍ مِّـــنْ

مِّثْلِهِ) (١) أى بكل ما اشتملت عليه من الفصاحة ، والبلاغة ، وحسن النظم ، وجودة السبك .

وقد ذكر الخطابى : أن القرآن الكريم تميز عن أساليب أرباب البيان ؛ لأنه جمع بين طرقهم جميعاً فى أصناف كلامهم ، لأنَّ كلامهم يجئ على ثلاث مراتب : أوَّلها : البليغ الرصين ، وثانيها : الفصيح القريب السهل ، وأدناها الجائز الطلق المرسل ، وتلك أقسام الكلام الفاضل المحمود ، وقد حازت بلاغات القرآن الكريم من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، أخذت كل نوع من أنواع شعبه ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الفخامة والعذوبة ، واجتماع الوصفين فى نظمه مع ثبوت كل واحد منهما على الآخر فضيلة خصَّ بها القرآن ليكون بينةً لنبيِّه .....

ثم يقول : واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى .. واضعا مما ذكر فيه موضعه الذى لا يرى شئ أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الباقية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة ، والمحتج له

---

(١) سورة البقرة من الآية رقم ٢٣ .

، والدليل ، والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، والجمع بين شتات هذه الأمـــور ؛ حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغـــه قدرهـــم ، فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته .[1]

ويذكر أن عمودَ بلاغته هو : وضع كل نوع من الألفاظ موضعــه الأخص الأشكل به الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منــه ، إمّـــا تبــدل المعنى فيفسد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الــذى يكــون بــه ســقوط البلاغة .

ويذكر الباقلاني : أن القرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبــه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه ، وأبوابه ، من تعديل النظـــم وسلامته ، وحسنه ، وبهجته ، وحسن موقعه في السمع ، وســـهولته على اللسان ، ووقوعه في النفس موقع القبول ، وتصـــوره تصـــور المشاهد ، وتشكله على جهته ؛ حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناءً ورفعة .

---

[1] - ثلاث رسائل (٢٨) .

وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الواقع في القلوب والتمكـــن في النفوس ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، وله مسالك في النفوس لطيفة ، ومداخل إلى القلوب دقيقة.[1]

وأما عبد القاهر الجرجانى فإنَّ رأيه [2] يتلخص في أن القرآن لم يكن معجزاً بكلماته المفردة ولا بمعانى الكلمات التى وضعت لها فـــي اللغة ، ولا بتركيب الحركات والســكنات ، ولا بقواطعــه وفواصلــه ، وذكر أن القول بأن القرآن معجز بذلك ناشىء من ســـوء المعرفــة ، ومن يزعم أن البرهان الذى بـــان لهم ، والروعة التى دخلت عليـــهم فأزعجتهم حتى قالوا : أن له لحلاوة .. الخ ـ إنمـــا كـــان الشـــيء راعهم من مواقع حركاته ، ومن تركيب بينها وبين سكناته أو لفواصل في آخر آياته ؟.

وهل قال ابن مسعود عنه "لا يُتْفه ولا يشان "وقال " إذا وقعـــت في آل حم وقعت في روضات د مثات اتـــأنق فيـــهن " يعنـــى يتتبـــع محاسنهن ، هل قال ذلك من أجل أوزان الكلمات ، ومن اجل الفواصـــل في آخر الايات ،ثم يقول :ولا يمكن جعل الاستعارة الأصل فى الإعجاز حتى لا يكون الأعجاز في آيات معدودة منة ثم يقول :

---

[1] – إعجاز القرآن للباقلانى (٢٠٩)

[2] – ينظر : دلائل الإعجاز – تحقيق / محمود محمد شاكر صـــ ٣٨٥ : ٤٢٠ ، نشر مكتبة الخانجى – غير مؤرخة .

"فإذا ابطِل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن شئ مما عددناه لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف الذى هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم " وأخذ في كتابه دلائل الإعجاز يبين كيفية هذا النظم والفروق بين التراكيب ليصل في نهاية الأمر إلى أنَّ إعجاز القرآن إنما كان بحسن نظمه وبلاغته .

ويذكر أنهّ لا يقصد بالنظم مجرد وضع كلمات بجوار بعضها أو وضع جمل بلا ترتيب مقصود ، وإنما المراد وضع كل كلمة مع ما يناسبها وان ترتب العبارات حسب ترتب المعانى فى الفكر .

➢ وجه أخر فى الإعجاز :

ذكر الخطابى وجها آخر فى إعجاز القرآن [1] غير ما تقدم وهو : صنيع القرآن بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإن القرآن إذا قرع السمع وصَّل إلى القلب لذة ، وحلاوة ، وروعة و مهابة ، ومن ثم تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، وهو يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ أقبل يريد النيل منه – عليه السلام – فيسمع آيات القرآن ، فيتحول عن رأيه ويدخل فى دينه كما حدث مع عمر بن الخطاب ﷺ وغيره .

[1] - ثلاث رسائل صـ ٧٠ ، ٧١.

ومن ذلك ما حدث مع **الوليد بن المغيرة** حين وصف القرآن بـأنَّ له حلاوة وأن عليه طلاوة .. الخ .

وقد سمعته الجن فلم تتمالك أن قالت **(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)**[1].

ويقول سبحانه : **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)** [2].

---

[1] – سورة الجن الآيتان (١ ، ٢) .
[2] – سورة الأنفال من الآية رقم (٢) .

نماذج من تطور

الدراسات البلاغية ونموها

- مبحث التقديم والتأخير .
- الفصل والوصل .
- التشبيه والتمثيل .
- الكناية والتعريض.
- الطباق والمقابلة.

نماذج من تطور الدراسات البلاغية ونموها

➢ مبحث التقديم والتأخير.

تناول العلماء موضوع التقديم منذ العصور الأولى ، فتكلم عنه سيبويه فى الكتاب ، واستشهد عبد القاهر بكلام سيبويه فى دلائل الإعجاز.

كما تحدث أبو عبيدة "معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٣ هـ" عن التقديم ، حيث تحدث عن جواز تقديم الضمير على الفعل وتأخيره من جهة النحو ، ولم يتكلم عن أثر ذلك التقديم من جهة البلاغة ، ومن ذلك كلامه عن التقديم فى قوله تعالى (بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) [١] إذ يقول: مقدم ومؤخر ومجازه: يعدلون بربهم ، أى يجعلون له عدلا - تبارك وتعالى عما يصفون - ويقصد بكلمة المجاز هنا طريق التعبير أى المعنى ، فكلامه عن التقديم والتأخير ؛ إنما كان لبيان المقدم والمؤخر دون أن يتعرض للأغراض البلاغية لهذا التقديم .

وفى القرن الثالث نجد ابن قتيبة "عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ هـ" يعقد باباً للمقلوب [٢] فى كتابه تأويل مشكل القرآن، ويذكر التقديم والتأخير تحت هذا الباب حيث يقول : ومن المقلوب أن يقدم ما يوضحه التأخير، ويؤخر ما يوضحه التقديم ،

---

[١] - سورة الأنعام جزء من الآية (١) .
[٢] - تأويل وشكل القرآن صـ ١١٨ : ١٣٢.

كقوله تعالى (فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَـــام) [١] أى مخلف رسله وعده ، لأن الإخلاف يقع بالوعد كما يقع بالرســـل ، فتقول : أخلفت الوعد ، وأخلفت الرسل ، وقال الشاعر:

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه ∴ وسائره باد إلى الشمس أجمع

أراد مدخل رأسه الظل ، فقلب ؛ لأنَّ الظل التبس برأسه فصار كل واحد منهما داخلاً فى صاحبه ، ومن ذلك قول الشاعر:

ومهمه مغبرة أرجاؤه ∴ كأن لون أرضه سماؤه

وكان الوجه أن يقول: كأن لون سمائه من غبرتها أرضه ، فقلـــب لأن اللونين استويا.

وهكذا نرى ابن قتيبة يذكر التقديم ضمن باب القلب ، ويمثل لـــه بأمثلة من القرآن الكريم والشعر، ويذكر أن وضـــع المقـــدم موضـــع المؤخر إنما كان لما بينهما من التعلق والارتباط. ولم يتحـــدث عـــن السر البلاغى للأمثلة التى أوردها.

وفى القرن الرابع يطالعنا قدامه بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) فى كتابه نقد النثر بباب للتقديم والتأخير يقـــول فيـــه: وأمـــا التقديـــم والتأخير كقوله تعالى" وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًـــا وأجَـــلٌ مُسَمًّى" (٢) أراد: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً.

---

[١] – سورة إبراهيم من الآية رقم (٤٧)
[٢] سورة طه الآية رقم ١٢٩

ولم يتحدث كغيره عن أسرار التقديم البلاغية ، وظل الحال على ذلك إلى عهد الإمام عبد القاهر الجرجانى .

وفى القرن الخامس نصل الى عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، شيخ البلاغيين وإمامهم ، والذى يرجع إليه الفضل فى إكمال بناء صرح البلاغة العربية على دعائم الذوق والتحليل.

وقد نال مبحث التقديم [١] عند عبد القاهر - كغيره من أبواب البلاغة - الحظ الوافر من العناية ، حيث نما هذا الباب ، واتسع على يديه ؛ ليصل إلى مرحلة الكمال.

ويبدأ عبد القاهر الكلام عن التقديم ببيان فضله فيقول: هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شئ وحُوِّل اللفظ عن مكانه إلى مكان.

ويعيب عبد القاهر على من تحدث عن التقديم دون أن يبين السر الكامن وراء التقديم ، واقتصر فى ذلك على أن التقديم للأهمية ، كما يلوم عبد القاهر على من هوّنوا من شأن التقديم وقللوا من أهميته فيقول:

---

١ - راجع دلائل الإعجاز ٨٣ - ١٠٧.

" ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتـــأخير فـــى نفوســـهم ، وهوّنوا الخطب فيه حتى رأوا تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف ولـــم ترظنا أزرى بصاحبه من هذا.

كما يذكر أنهم هوّنوا كذلك من سائر الأبواب من حذف ، وذكـــو ، وإظهار .. إلخ .. ثم يقول: وليت شعرى إن كانت هذه الأمور هينـــة ، وكان المدى فيها قريباً، والجدى يسيراً من أين كان نظم أشرف مـــن نظم ، وبم عظم التفاوت واشتد التباين؟ أو ههنا أمور أخر نحيل فـــى المزية عليها ، ونجعل الإعجاز كان بها ؟ .. ثم يقول: أوليـــس هـــذا التهاون خيانة من الإنسان لعقله ودينه ؟

وذكر عبد القاهر بعد ذلك: أن التقديم مفيد فى كل حالاته ، ويبين أنهً من الخطأ أن يجعل التقديم مفيداً فى حال ، وغير مفيد فـــى حـــال أخرى ، كأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر.

ويحتم عبد القاهر أنه ينبغى أن يعرف فى كل شئ قدّم فى موضع من الكلام السر فى تقديمه ، وأن يفسر وجه العناية به ، ثم أخذ عبـــد القاهر بعد ذلك فى استعراض مواضع التقديم ، ويذكر أثر التقديم فيمـــا قدّم ، والسر وراء هذا التقديم بعرض الشواهد والموازنه بين ما قـــدم وأخر ؛ لبيان فضيلة التقديم فيما قدم ، وقد تكلم عن الأمور الآتية فـــى هذا الباب:-

١) الاستفهام بالهمزة:

فتكلم عن الاستفهام الحقيقى: حيث قال: إذا بدأت بالفعل فقلت: أفعلت ؟ كان الشك فى الفعل نفسه ، وإذا بدأت بالاسم فقلت: أأنت فعلت ؟ كان الشك فى الفاعل من هو ؟ وأخذ يبين الفروق بين تقديم الاسم ، وتقديم الفعل هنا وأنه لا يصح أن يوضع أحدهما فى موضع الآخر وإلا فسد الكلام.

كما تكلم عن الهمزة إذا أتت للتقرير كذلك ، فيقدم المقرر به من فاعل أو فعل ، بحيث يلى الهمزة ، ومثل لذلك بقوله تعالى (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) [١] لأن المراد أن يقر لهم بأنه الفاعل لذلك قدم الاسم ، كما ذكر أن الهمزة تجئ لمعنى آخر غير التقرير وهو إنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله كقوله (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) [٢] وقد قدم الفعل فى الآية محل الإنكار ، أما إذا قدم الاسم فيكون الإنكار للفاعل ، كقولك لمن يدعى قول الشعر : أأنت قلت هذا الشعر ؟ كذبت لست ممن يقول مثل هذا , فالإنكار واقع فى الفاعل لا فى الفعل.

١) كما يتحدث عن الفرق بين تقديم الاسم وتقديم الفعل إذا كان الفعل مضارعاً ، ويفرق بين كون المضارع ، للحال ، أو الاستقبال فى

---

١ – سورة الأنبياء من الآية (٦٢).
٢ – سورة الإسراء من الآية رقم (٤٠).

ذلك ، ويعرض الأمثلة لهذا ، ويبين الفرق بين تقـــدم الاســم أو الفعل . .

كما يتحدث عبد القاهر عن مزية الاستفهام الإنكارى الذى هـــو بمعنى النفى على النفى الصريح ، ويبين أنَّ المراد من الاســـتفهام الإنكارى : تنبيه المخاطب على خطئه عن طريق استخدام الاستفهام بعرض هذا الخطأ فى صورة السؤال ، فيتنبه المخاطب ويرتدع عما أقدم عليه من أمر لا ينبغى ، وهذا لا يتحقق فى النفى الصريح.

كما يذكر عبد القاهر أنهَّ قد يُنَكَّرُ الفعل ويراد نفيه بإنكار فاعله ، أو مفعول ، ويمثل لذلك.

٢) التقديم فى الخبر المنفى :

تكلم عبد القاهر عن التقديم فى الخبر المنفى الذى خبره فعـــل ؛ ليبين الفرق بين تقديم الاسم وجعله تاليا للنفى ، وبين تقديم الفعـل فى هذا فيقول : إذا قدمت الفعل فقلت : ما فعلت ، كنت قــد نفيــت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول ، وإذا قلت : ما أنا فعلت هذا ،وكنــت قد نفيت عنك فعلاً ثبت أنه مفعول ، ويذكر الأدلة والفـــروق بيــن تقديم الاسم والفعل فى حال النفى و يذكر الأمثلة ؛ ليبيـــن أنـــه لا يصح أن يوضع أحدهما في موضع الأخر ، ويوضح ذلك بعـــرض الأمثلة الصحيحة والفاسدة فى هذا .

٣) التقديم فى الخبر المثبت :

يتكلم عبد القاهر هنا عن تقديم الاسم فى حال الإثبات فيقول :

إذا قدم الفاعل على الفعل كان هذا التقديم راجعا إلى أمرين :

➢ أحدهما :

إفادة القصر كقولك : أنا عنيت بأمر فلان ، ومنه قولك : أتعلمني بضب أنا حرشته ؟ فالمراد هنا هو القصر .

والأمر الثانى :

أن يراد بتقديم الاسم : تقوية الحكم كقولك : هو يعطى ، فأنت لا تريد قصره على العطاء دون غيره ، وإنما أردت أن تثبت له هذا الفعل بطريق أكد ، وتهدف إلى تقوية الحكم بكونه معطيا ، ويعلل هذه التقوية بقوله "فإنه لا يؤتى بالاسم معرى عن العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه فإذا جئت بالفعل دخل على القلب دخول المأنوس فكان ذلك أدعى لثبوته "

ويذكر أن هذا النوع يجئ فيما ينكره المخاطب ،وفى الوعد ، والضمان والمدح ، وذكر لذلك الكثير من الشواهد .

٤) وتكلم عبد القاهر عن تقديم النكرة ، ومثل لها : كما تكلم عن تقديم المفعول وتأخيره ، وبيَّن الفرق بينهما ، وكذلك الجار والمجرور .

٥) وتكلم عن التقديم في مثل ، وغير فقال : ومما يرى تقديم الاســـم فيه كاللازم "مثل وغير " إذا أريد بهما الكناية . كقولك: " مثلـــك لا يبخل " فهو كناية عن كونه جوادا ، وهكذا يســـتعرض عبدالقـــاهر موضوع التقديم والتأخير بإفاضة لم تتحقق من قبلة ، وهو في كـل ما تناوله في هذا الباب يعرض الأمثلة الكثيرة ؛ لبيان الفرق بيـــن أسلوب وأسلوب ؛ ليصل إلى توضيح ثمرة التقديم فيما قدم ،وقـــد استفاد منه مَن جاء بعده. [1] .

وفى القرن السادس نجد السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ومـــن سار على نهجة كالخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٧ هــــ وغـيـره ممن تناولوا كتاب المفتاح بالشرح والتلخيص أو الاختصـــار ، فكلـــهم ساروا على نهج السكاكى فى تناوله للقضايا البلاغية.

وإذا أردنا أن نتعرف على ما صنعه السكاكى ، ومن سار علـــى نهجه فى التقديم لوجدنا أن السكاكى قد وزع مبحث التقديم والتـــأخير بين عدة أبواب من علم المعانى ، ولم يتناوله تحت باب واحد كما فعل عبد القاهر الجرجانى الذى تكلم عنه مرة واحدة ، وجمع كل ما يـــدور حوله فى موضوع واحد من كتابه دلائل الإعجاز .

أما السكّاكى فقد تكلم عن التقديم فى عدة مواضع كما قلنا وهى :-

١- فى باب المسند إليه ، تكلم عن أغراض تقديم المسند إليه .

---

[1] - ينظر : دلائل الإعجاز صـــ ١٠٦ : ١٤٥.

٢- وفي باب المسند ، تكلم عن أغراض تقديم المسند .

٣- وفى باب متعلقات الفعل ، يتكلم عن تقديم الفعل على الفاعل أو المفعول ، ويعرض الأمثلة لكل غرض مما ذكره باختصار[1].

ويسير الخطيب على نهج السكاكى ، بل وكل من جاء بعد الخطيب ولا يخفى عليك هذه الأغراض التى سبق دراستها فى السنة الأولى .

والذى يهمنا هو بيان أن الدراسة البلاغية لهذا الباب قد تغيرت عن المنهج الذى رأيناه عند عبد القاهر وصارت إلى منهج مخالف لما سار عليه عبد القاهر ، وبالإضافة إلى هذا التغيير فى طريقة التناول ، فقد تحولت البلاغة من الدراسة الأدبية التى تهتم بتحليل الشواهد لبيان خصائص كل أسلوب كما عند عبد القاهر ، تحولت إلى المنهج المنطقى والجدلى من حيث التقسيمات وذكر الأمثلة بلا وقوف عندها لتحليلها ودراستها .

١ – ينظر مفتاح العلوم للسكاكى صـ ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٩ : ٢٢٣.

(الفصل والوصل وكيف تطورت دراسته)

إذا أردنا أن نقف على أول دراسة للفصل والوصـــل لوجدنـــا أنَّ هذه الدراسة لم تتم إلا على يد الإمام عبد القاهر الجرجـــانى - الـــذى تناول الموضوع بالدراسة المتأنية الجيدة - كما سنعرف وكل ما ذكـــر عن الفصل والوصل قبل عبد القاهر لم تكـــن ســـوى عبـــارات تشـــيد بالفصل والوصل دون أن تتعمق فى دراستة أو تبين مواضعه .

فالجاحظ يعرض للفصل والوصل عند كلامه عـــن البلاغـــة فـــى البيان والتبيين فيقول "قيل للفارسى: ما البلاغـــــة "؟ فقـــال : معرفـــة الفصل والوصل.[1]

➢ وأما أبو هلال العسكرى [2] المتوفى سنة ٣٩٥ هـ :

فيضع فى كتابه الصناعتين فصلا في ذكر المقاطع والقـــول فـــى الفصل والوصل ، فيذكر تعريف الفارسى للبلاغة أيضا ، ويورد كـــلام اكثم بن صيفى لِكُتَّابة حينما كان يقول لهم " افصلوا بين كل منقضـــى معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض " وينقل عن بـــزر جمهر قوله " إذا مدحت رجلا وهجوت آخر فاجعل بين القولين فصـــلا ، حتى تعرف المدح من الهجاء ."

---

(١) [البيا]ن والتبيين ٤/٧٥ .

(٢) [الصنا]عتين ٤٢٣ وما بعدها .

كما يورد قول يزيد بن معاوية (إياكم أن تجعلوا الفصل وصلا فإنَّه أشَدُّ وأعيبُ من اللحن).

كما أورد قول المأمون (فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل و الوصل كانت كاللآلئ بلا نظام).

وهكذا أخذ أبو هلال فى نقل الأقوال عن الفصل و الوصل ، ويذكر لذلك نماذج من الكلام الذى روعى فيه الفصل والوصل بين الأغراض دون أن يبين مواضع الفصل والوصل كما هو معروف عند الإمام عبد القاهر ومن جاء بعده.

و أما عبد القاهر الجرجانى :

فقد وضع بابا للفصل والوصل [1]فى كتابه دلائل الإعجاز ، وقام بدراسته دراسة مستفيضة لم يسبق إليها قط.

وقد بدأ عبد القاهر الكلام عن الفصل والوصل بذكر مقدمة توضح قيمة هذا الباب ، حيث يقول (اعلم بأن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى تمام الصواب فيه إلا للأعراب الخلص ، والأقوام الذين طُبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنًا من المعرفة فى ذوق الكلام ، وهم بها أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك انهم

---

[1] - راجع دلائل الإعجاز ١٧٠ - ١٨٧.

جعلوا الفصل والوصل حدًا للبلاغة ، ذلك لغموضه ودقة مسلكه ، وتكلم عن دقة هذا الباب وتقصير الناس فى حقه فقال : واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه إنَّه خفى غامض ودقيق صعب ، إلا وعِلْمُ هذا الباب أغمض ، وأخفى وأدقُّ وأصعب ، وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف : إنَّ الكلام قد استؤنف وقُطِع عما قبله ، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك ، وقد غفلوا غفلة شديدة وأخذ يعد ذلك فى الكلام عن مواضع الفصل و الوصل ، فوضَّح أن عطف الجملة على الجملة التى لها حكم إعرابى أمر سهل ، ولكن المشكل هو عطف جملة على جملة لا محل لها من الإعراب.

كما تكلم عن العطف بالواو ، وأن العطف بالواو مشكل دون بقية الحروف التى تفيد مع العطف معانى أخرى كالتعقيب مثلا .

ووضَّح أنه: لكى يحسن العطف يجب أن يكون المحدث عنه فى إحدى الجملتين بسبب (يعنى بصلة) من المحدَّث عنه فى الجملة الأخرى ؛ لأنك إذا عطفت على شئ ليس بينه وبين المعطوف سبب لم يستقم الكلام فإذا قلت : خرجت اليوم ، ثم قلت : وأحسن الذى يقول بيت كذا ، قلت ما يضحك .

وتحدث عن سر الفصل بين الجمل فقال : واعلم انه كما كان فى الأسماء ما يصله معناه بالإسم قبله فيستغنى بتلك الصلة عن الربط

وذلك كالصفة والتأكيد ،وكذلك يكون فى الجمل ما تتصل بذات نفسها بالتى قبلها وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطهما ، وهى كل جملة كانت مؤكدة للتى قبلها ، أو مبيِّنة لها ، ويعرض لذلك اللون المعروف بكمال الاتصال الكثير من الأمثلة من القرآن الكريم وغيره ، من ذلك قوله تعالى (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[1] لم يعطف (كأن فى أذنيه وقراً " على ما قبلها ؛ لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقرا هو (بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع ، إلا أن الثانى أبلغ وآكد فى الذى أريد ، فالجملة الثانية بمنزلة التوكيد الأولى .

ويتحدث الإمام عبد القاهر عن وقوع الجملة الثانية بياناً للأولى فى قوله تعالى (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) [2] بقوله : فهو أنه إذ نُفِى أن يكون بشرا فقد أثبت له جنس سواه ، إذ من المحال أن يخرج من جنس ولا يدخل فى جنس آخر ، فيكون إثبات الملك له تبيينا وتعييناً لذلك الجنس الآخر ، كما يقال : مررت بزيد الظريف ، من جهة كون الظريف تبيينا وتعيينا .

وهكذا يعرض عبد القاهر لأمثلة هذا اللون ويقف أمامها طويلا ، يحللها بأسلوبه الأدبى ، حتى تتضح للقارئ غاية الاتضاح .

---

١ - سورة لقمان من الآية رقم (٧).
٢ - سورة يوسف من الآية رقم (٣١) .

ويتكلم عن سر الفصل في قوله تعالى (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)(1) فيقول : قد ترى الجملة وحالها مع التى قبلها حال ما يعطف ويُقْرَنُ إلى ما قبله ، ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف، لأمر عَرَضَ فيها صارت به أجنبية عما قبلها .

مثال ذلك قوله تعالى (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم ْ) الظاهر أن يعطف (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) على ما قبله وهو قوله تعالى " إنما نحن مستهزئون " وذلك أنه ليس بأجنبي عنه ، ثم إنك تجده قد جاء غير معطوف لأمر أوجب أن لا يعطف ، وذلك أن قوله " إنما نحن مستهزئون " حكاية قولهم وليس بخبر من الله تعالى ، وقوله " الله يستهزئ بهم " خبر من الله تعالى ، فامتنع العطف ؛ لاستحالة عطف ما صدر عن الله تعالى على ما صدر منهم ، وليس كذلك الحال في قوله تعالى " يخادعون الله وهو خادعهم " لأن كلا من الجملتين صارت خبراً من الله تعالى .

وهذا الذى ذكره عبد القاهر فى الآية يندرج تحت شبه كمال الاتصال ، ويذكر أدلة أخرى على وقوع الفصل فى الآية الكريمة ، ثم يعرض أمثلة أخرى من الشعر جاءت على نمط الآية من وقوع الفصل فيها ، كما يعرض لسبب آخر من أسباب الفصل فى شبه كمال الاتصال وهو وقوع الجملة بعد جملة تقتضى سؤالا وذلك كقول الشاعر :

---

(1) سورة البقرة الآيتان (١٤-١٥).

زعم العواذل أننى فى غمرة ∴ صدقوا ولكن غمرتى لا تنجلى

لما حكى عن العواذل أنهم قالوا : هو فى غمرة ، وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول : فما قولك فى ذلك ؟ وما جوابك عنه ؟ أخرج الكلام كما لو أن ذلك قد قيل ، وكان جوابه عنه " صدقوا " ولو قال : زعم العواذل أننى فى غمرة وصدقوا ، لم يضع فى نفسه أنه مسئول ، وأن كلامه كلام مجيب .

ويذكر عبد القاهر أمثلة أخرى وقع فيها الفصل لكون الثانية جواباً عن سؤال وقع فى الجملة الأولى ويشرحها ، ويوضحها ، ويحللها تحليلاً دقيقا ، ويذكر بعد ذلك فصلا يلخص فيه الأحوال التى تقتضى الفصل أو الوصل بين الجمل فيقول : فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول :-

جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف ألبتة لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على نفسه .

الضرب الثانى :-

أو جملة حالها مع التى قبلها حال الاسم يكون غير الذى قبله إلا أنه يشاركه فى حكم ، ويدخل معه فى معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً ، أو مفعولاً ، أو مضافاً إليه ، فيكون حقها العطف .

الضرب الثالث :-

وجملة ليست فى شئ من الحالين ، بل سبيلها مع التـــى قبلــها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه فى شئ ، بل هو شئ إن ذكر لـــم يذكر إلا بأمر ينفرد به ، ويكون ذكر الذى قبله وترك الذكـــر ســواء ، لعدم التعلق بينه وبينه رأسا ، وحق هذا ترك العطف .

فترك العطف إما للاتصال للغاية " وهو ما يعرف بكمال الاتصال ، أو للانفصال لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين الحالين " يعني التوسط بين الكمالين " .

وما صنعه الإمام عبد القاهر فى هذا الباب يعد جوهر باب الفصل والوصل ، فقد تكلم عن معظم مسائله ، ولم يزد عليه من جاء بعـده ، إلا بعض المواضع التى استنبطوها كذلك من كلام الإمام عبـد القــاهر نفسه ، وقد رأينا أنَّ من سبقوا عبد القاهر لم يذكروا شيئا ذا بال فـــى موضع الفصل والوصل .

الفصل والوصل بعد عبدالقاهر :

جاء السكاكى [1] بعد عبد القاهر فوجد هــذا البــاب قــد كملــت دراسته عند عبد القاهر ، وأخذ يستعرض مسائل هذا الباب مســـتفيداً غاية الاستفادة من عبد القاهر ، وأخذ فى تنظيم ما ذكره عبد القـــاهر

[1] - راجع المفتاح ص ١١٠ وما بعدها .

وتقسيم الأمثلة وتوزيعها على مواضع الفصل ومواضع الوصل ، كما أضاف أمثلة لذكر جملتين ليس بينهما جامع ، من صنعه هو .

ثم أخذ السكاكى فى توضيح معنى وجود المناسبة بين الجملتين ، والتى قال عنها عبد القاهر : أن يكون المسند إليه فى الجملة بسبب من المسند إليه فى الجملة الأخرى ، وكذلك المسند فيهما ، أخذ السكاكى فى توضيح هذه المناسبة التى أسماها الجامع باستخدام الفلسفة والمنطق فى ذلك ، حيث قسم الجامع إلى عقلى ، ووهمى ، وخيالى وأخذ يعرض الأمثلة لذلك .

وقد تبع الخطيبُ السكاكىَّ فى كل ما ذكره ، وزاد عليه ، لأنه يسير على نهجه ، وكان كل همهما هو وضع الضوابط والقواعد لهذا الباب ، جرياً على ما سارا عليه فى كل أبواب البلاغة .

ولا يخفى عليك ما ذكره الخطيب فى باب الفصل والوصل الذى درسته قبل ذلك فى العام الماضى ونوجزه لك فيما يأتى :

ذكر الخطيب تعريف الفصل والوصل ، ومزية هذا الباب نقلا عن عبدالقاهر .

ثم ذكر الآيات التى ذكرها عبد القاهر فى الفصل إذا لم يقصد التشريك فى الحكم .

وذكر بعد ذلك مواضع الفصل الأربعة عندما لا يكون للجملة الأولى حكما يقصد تشريك الثانية فيه ، وهذه المواضع هى :-

١-كمال الانقطاع مع عدم الإيهام ، وذلـك إذا كـان بيـن الجملتيـن اختلاف فى الخبرية ، والإنشائية ، أو ليس بين الجملتين جامع .

٢-أن يكون بين الجملتين كمال الاتصال ، بأن تكون الجملـة الثانيـة بمنزلة التأكيد ، أو البدل ، أو عطف البيان من الجملة الأولى .

٣-شبه كمال الانقطاع ، وذلك إذا كـانت الجملـة الثانيـة مسـبوقة بجملتين يصح عطفها على إحداهما ، لوجود المناسبة بينـهما ولا يصح عطفها على الأخرى ؛ لأن فى العطف فساد المعنـى فيـترك العطف فى الجملتين ؛ دفعاً لتوهم عطفها على التى لا يصح العطف عليها .

٤-شبه كمال الاتصال ، وهو أن تكون الجملة الثانية بمنزلـة جـواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ، فتفصل الثانية عن الأولى ، كمـا يفصل الجواب عن السؤال ، لما بينهما من شبه كمال الاتصـال ، ويسمى الفصل استئنافا، ويأخذ الخطيب فى ذكر معنى الاسـتئناف وتقسيمه وصوره وحذفه ..الخ .

<u>ويتكلم الخطيب بعد ذلك عن مواضع الوصل الثلاثة وهى :</u>

١)كمال الانقطاع مع الإيهام ، وذلك إذا أوهم الفصل فـى كمـال الانقطاع بين الجملتين باختلافهما – خبراً وإنشـاء – خـلاف المقصود وجب الوصل كقولهم لا وأيدك الله .

٢)التوسط بين الكمالين (كمال الاتصال وكمال الانقطاع).

٣)إذا كان للجملة الأولى محل من الإعراب وقصد إشراك الثانيـــة لها فى الحكم الإعرابى .

كما تكلم عن الجامع وأقسامه كما ذكرنا ، وهكذا نجد أن كل مـــا صنعه الخطيب ، وقبله السكاكى هو توزيع مسائل هذا البـــاب وضبـــط قواعده ، مع الإقلال من الأمثلة وعدم تحليلها كما ينبغى ، مع إقحـــام الفلسفة فى هذه التقسيمات .

(دراسة التشبيه ومراحل نموه وتطوره)

عند عرضنا للتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، اتضح لنا أن مسائل علم المعاني قد تأخرت دراستها ، ولم تزدهر هذه الدراسة ولم يتحقق لها النمو السريع ، كما سنجد ذلك بوضوح في دراستنا للتشبيه الذي هو من علم البيان .

فحتى القرن الرابع الهجري لم تكن مسائل علم المعاني قد درست الدراسة التي توقفنا على خصائصها وأقسامها .

-أما التشبيه فإن الدراسات قد ظهرت فيه في وقت مبكر ، حيث تناوله العلماء بالعرض وذكر أمثلته ، والقبيح منها ، والمستحسن ، وذلك لما له من أثر في نفوس الأدباء حيث استخدموه واعتمدوا عليه كثيرا في شعرهم ٠٠ويذكر المبرِّدُ : أن التشبيه يجري كثيراً في كلام العرب حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد [١] .

ويقول ابن قتيبة : وليس كل شعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار على جهات وأسباب منها الإصابة في التشبيه [٢].

ويذكر ابن طبا طبا العلوي أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها ٠٠الخ .

---

[١] – الكامل ٦٩/٢.
[٢] – الشعر والشعراء ٢٠.

وإذا أردنا الوقوف على بداية تعرض العلماء للتشبيه لوجدنـا أن أول كلام هو ما جاء عند أبى عبيده عندما ألف كتابه " مجاز القـرآن " ، فقد تعرض فيه لذكر كلمة التشبيه فى أكثر من موضع ومنها قولـه تعالى : (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) [1] فذكر أنها كناية وتشبيه ، كما أن وضع كتابه كان بسبب سؤاله عن آية فيها تشبيه بشيء غـير معـروف ، وهى قوله تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) [2] وفهم أبـى عبيـده للتشبيه لا يتعدى الفهم اللغوى لمعنى التشبيه .

➢ التشبيه عند الفراء م ٢٠٧هـ :

تكلم الفراء فى كتابه " معانى القرآن " عن بعض أمثلة التشـبيه كما فى قوله تعالى(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّـمَاءُ فَكَـانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَـانِ) [3]" فقال:"الوردة تكون فى الربيع إلى الصفرة أميل ، فإذا اشـتد الـبرد كانت وردية حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت إلى الغبرة أميل ، فشـبه تلون السماء بتلون الوردة فى اختلاف ألوانها ، وشبهت الوردة فـى اختلاف ألوانها بالدهن فى اختلاف ألوانه .

وهكذا يتحدث الفراء عن التشبيه بتوضيح الطرفيـن والوجـه ، دون أن يتعرض لتقسيماته.

---

[1] - سورة البقرة من الآية رقم (٢٢٣) .
[2] - سورة الصافات الآية رقم (٦٥) .
[3] - سورة الرحمن الآية رقم (٣٧).

وفى القرن الثالث يجئ الجاحظ(ت٢٥٥هـ) فيذكر " فى البيان والتبين "باباً لتشبيه الشئ بالشئ ، و أورد فيه كثيرا من الأمثلة .

ويرُدَّ على من طعن فى القرآن بفساد التشبيه فيتكلم فى الحيوان عن قوله تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) (١) فيقول : "قال أهل الطعن ليس يجوز أن يضرب المثل بشئ لم نره فنتوهمه؟ ويجيب عليهم بقوله : قلنا : وان كنا لم نر شيطاناً قط ، ففى إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كل قبيح "، فقد أبان الجاحظ أن المشبه به ليس مجهولا ولكنه معلوم بقبحه وفظاعته ليكون مثلا فى الإخافة .

ويتضح من كلامه فى الآية أنه ذكر صفة المشبه به ، ووجه الشبه ، والغرض المقصود من التشبيه ، وبذلك يكون مفهوم التشبيه قد وضح عند الجاحظ أكثر من وضوحه عند مَنْ سبقه .

كما عقد المبرد م سنة ٢٨٥هـ باباً للتشبيه فى كتابه (الكامل) حيث يتكلم عن التشبيهات الجيدة (٢)ومنها قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ∴ لدى وكرها العناب والحشف البالى

وقد اعتنى بذكر الشواهد الكثيرة والمثل التى كانت زاداً لمن جاء بعده للأخذ منها .

---

١ – سورة الصافات .الآية رقم (٦٥) .

٢ – ينظر الكامل جـ ٢ صـ ٩٢٢ وما بعدها .

ولم يهتم المبرد بتعريف التشبيه ولم يذكر تقسيماته المعروفة وتكلم المبرد عن وجه الشبه فقال : فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق .

والعرب تشبه النساء ببيض النعام فى نقائه ، تريد نقاءه ، ورقة لونه ، والمرأة بالسحابة ، فى تهاديها وسهولة مرها .

وفى كل تشبيه يذكره يوضح معناه والمراد منه .

ويذكر بعض أقسام التشبيه : فيقول [1]: والعرب تشبه على أربعة أضرب :-

١) التشبيه المفرط كقول بكر بن النطاح .

له راحة لو أن معشار جودها ∴ على البر صار البر أندى من البحر

٢) والتشبيه المصيب كقول امرئ القيس :

كأن الثريا علقت فى مصامها ∴ بأمراس كتان إلى صم جندل

٣) التشبيه المقارب كقول الشاعر :

لـــــه بين حواميـــــه ∴ نسور كنوى القسب

والحوامى : جوانب الحوافر

١) التشبيه البعيد الذى لا يقوم بنفسه كقول الشاعر :

بل لو رأتنى أخت جيراننا ∴ إذ أنا فى الدار كأنى حمار

- وأراد أنه فى صحة ولكن هذا بعيد .

---

[1] - ينظر السابق جـ ٢ صـ ١٠٣٢ وما بعدها .



" كأن قلوب الطير ... الخ ، ثم يذكر أبياتا لشـــعراء آخريـــن ، كالنابغة وزهير والأعشى والفرزدق ، وعدى ، وبشار ، وغيرهم .

وما صنعه ابن المعتز لا يتعدى ذكر الشواهد التى تجمـــع بيـــن التشبيه والاستعارة ؛ دون أن يميز بينهما ، كما لم يتعـــرض لتحليـــل الشواهد أو ذكر التعريف للتشبيه ، كما لم يتكلم عن ضوابط التشـــبيه أو أقسامه .

وفى بداية القرن الرابع يطالعنا ابن طباطبا العلوى م ٣٢٢هـــ بكتابه "عيار الشعر" تحدث فيه عن أنواع الشعر ، وتكلم عن التشـــبيه وأقسامه، فقال:-

➢ **والتشبيهات على ضروب مختلفة :**

-فمنها تشبيه الشيء بالشئ صورة وهيئة كقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... الخ .

-وتشبيه الشيء بالشيء صورة ولونا وحركة وهيئة كقول جنادة :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل.

-وتشبيه الشيء بالشيء حركة وهيئة .

-وتشبيه الشيء بالشيء معنى لا صورة كقول النابغة .

فإنك شمس والملوك كواكب ⁖ إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

-وتشبيه الشيء بالشيء بطؤا وسرعة كقول امرئ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا ∴ كجلمود صخرة حطه السيل من عل

-وتشبيه الشيء بالشيء لونا كقول عبيد بن الأبرص :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه ∴ فى عارض كمضيء الصبح لماح

وهكذا يعرض ابن طباطبا للتشبيه ويذكر لكل ضرب من هذه الأنواع العديد من الأمثلة ، لكنه لا يهتم بالتحليل أو الشرح .

لكن الملاحظ أنه خطا بالتشبيه خطوة نحو ذكر بعض أقسامه التى يجئ عليها .

وفى القرن الرابع الهجرى أيضا جاء قدامة بن جعفر (ت٣٣٧ هـ)(١) فتكلم عن التشبيه فى كتابيه نقد النثر ، ونقد الشعر .

حيث جعله من أغراض الشعر ، ونعتا لمعانيه ، وهذا يعنى أن التشبيه عند قدامه من أدوات فن الشعر .

ويتكلم عن معنى التشبيه فيقول : إن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات لأن الشيئين إذا تشابها من كل الوجود كانا شيئاً واحداً ، وإنما يقع التشبيه بين شيئين بينها اشتراك فى معان تعمهما ويوصفان بها ، وبينهما كذلك افتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها .

ويقول : وأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات ، أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ،

---

١ - راجع نقد الشعر صـ ٦٥ : ٧٠.

وذكر عدة أبيات من التشبيه الجيد ، ومنها قول أوس بن حجر يشبه ارتفاع أصواتهم فى الحرب تارة ، وهمودها وانقطاعها تارة بصوت المرأة التى تجاهد أمر الولادة فى قوله :-

لها صرخة ثم إسكاته ∴ كما طرقت بنفاس بكر

ولم يُرد أنَّ المشبه فى هذا الموضع هو نفس الصوت ، وإنما أراد حاله فى أزمان مقاطع الصرخات ، وإذا نُظِر فى ذلك وجد الذى وقف بين الصورتين واحدا وهو مجاهدة المشقة والاستعانة على الألم بالتبديد فى الصرخة . فهو قد بيَّن وجه الشبه هنا ووضحه .

وبعد أن يعرض هذه الأمثلة ، ويشرحها ، يتحدث عن التصرف فى التشبيه بوجوه تزيده حُسْناً ، فيقول : وقد يقع فى التشبيه تصوف إلى وجوه تستحسن فمنها :

أ-أن تجمع تشبيهات كثيرة فى بيت واحد وألفاظ يسيرة ، كما قال أمرؤ القيس:

له أيطلا ظبى وساقا نعامه ∴ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء ، وذلك أن مخرج قوله: " له أيطلا ظبي" إنما هو على أنه له أيطلان كأيطلى الظبى ، وكذا ساقان كساقى نعامة وإرخاء السرحان ، وتقريب كتقريب التتفل .

ب-ومنها : أن يشبه شئ بأشياء فى بيت أو لفظ قصير ، وذلك كما قال أمرؤ القيس :-

وتعطو برخص غير شثن كأنه ∴ أساريع ظبى أو مساويك إسحل

جـ-ومنها أن يشبه شئ في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلـــك الأحوال كقول الحسين بن مطير : يشبه أفعال رجل مـــات وكـــان جوادا .

فتى عيش فى معرفى بعد موته ∴ كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً

ويذكر أن من أبواب التصرف فى التشبيه أن يكون الشعراء قـــد لزموا طريقة واحدة من تشبيه شئ بشئ ، فيأتى الشاعر من تشـــبيهه بغير الطريق التى أخذ فيها عامة الشعراء ، ومن ذلك أن أكثر الشعراء يشبهون الخوذ بالبيض ، ويلتزمون ذلك فى الغالب ، ولكن أبا شـــجاع الأزدى سلك طريقا غير هذا ، فأتى للخوذ بتشبيه آخر فقال :

لم أر إلا الخيل تعدو كأنما ∴ سنورها فوق الرؤوس الكواكب [1]

ومن التصرف أيضا أن يقصد الشاعر فى تشبيه الشئ إلى جهـــة غير التى يقصدها غيره من الشعراء ، ومن ذلك أن معظـــم الشـــعراء يشبهون الدرع بالغدير الذى تصفقه الرياح ، فيذهبون إلـــى الشـــكل ، وذلك أن الريح تفعل بالماء فى تركيبها إياه بعضا على بعض ما يشبهه فى حال التشكيل ولن سلامة بن جندل عدل عن هذا التشـــبية الراجـــع الى الشكل واختار التشبيه من جهة اللين .

-لأن اللين من دلائل جودة الدرع لصغر قتيرها وحلقها فقال :

---

[1] - السنور لبوس من قد يلبس فى الحرب.



بدأت تظهر على يديه التعريفات لما يتناوله من أمـــور يتحـدث عنها ، فقد ذكر تعريف التشبيه ومعناه وإن كان لم يصل إلى المعنـــى الاصطلاحى الذى عرف فيما بعد .

- ذكر صور التشبيه ومثل لكل صورة بما يميزها عن غيرها .
- موازنته بين الشعراء ، من حيث ملاحظة ما يتجه إليه الشاعر فـى التشبيه المخالف لما عليه الشعراء ، مع عرض الكثير من الشـعر الجيد وبذلك يكون قدامه قد خطا بالتشبيه خطوات ميَّزته ووضَّحـت أقسامه .

➢ **ومن العلماء الأجلاء الذين برزوا فى القرن الرابع أيضا :-**

الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ وهو ممن تعرض لبيـان وجـه إعجاز القرآن الكريم برسالته المعروفة باسـم "النكـت فـى إعجـاز القرآن" وهذه الدراسات المتعلقة بالإعجاز قد أثْرَتِ البحث البلاغـي ، وخطت به خطوات واسعة نحو النمو والتطور ؛ لأنهم تعرضوا لبحث العديد من النواحى البلاغية ؛ ليقفوا على سر الإعجاز .

وقد تعرض الرمانى للحديث عن التشـبيه [1] ضمـن الأقسـام العشرة التى ذكرها للبلاغة ودرسها فى بيانه لوجه الإعجاز .

---

[1] - انظر النكت فى إعجاز القرآن مع ثلاث رسائل ٨٠-٨٥.

ويبدأ كلامه عن التشبيه بذكر تعريفه فيقول : هو العقد علـــى أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقـــل ، ويتكلـــم عـــن الأداة فيذكر أن الكاف فى قولنا : زيد شديد كالأسد ، عقـــدت المشـــبه بـــه بالمشبه .

➢ **<u>ويقسم التشبيه إلى قسمين (وذلك من حيث الحسية والعقلية)</u>**

-أحدهما:- تشبيه حسى : كماءين وذهبين ، يقـــوم أحدهمـــا مقـــام الآخر.

-والقسم الآخر:-تشبيه نفسى : كتشبيه قوة زيد بقوة عمرو ، فالقوه لا تشاهد ولكنها تعلم .

ويتكلم عن قيمة التشبيه فيقول : إنه يكسب الكلام بيانا عجيبا ، وهو على طبقات فى الحسن حيث إنه الباب الذى يتفاضل فيه الشعراء ، وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، ويذكر أن التشبيه على وجهين .

-الأول :- تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما ، كتشبيه الجوهر بالجوهر والسواد بالسواد.

-الوجه الثانى :- وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشـــترك بينهما كتشبيه البيان بالسحر الحلال .

ويقرر أن التشبيه البليغ : هو إخراج الأغمض إلى الأظهر بـــأداة التشبيه مع حسن التأليف .

كما يتكلم عن الأغراض التى يجئ لها التشبيه ويمثل لها ، ويذكر أنها تقع على وجوه:

أ-منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة كقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) [1] فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه .

ويتحدث عن وجه الشبه فى الآية ويوازن بين الآية وبين ما يقال فى أمر الكلام العادي – فيقول : وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغا ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد حرصا عليه وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار ، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة ، ويذكر أربع آيات أخرى لهذا النوع ويوضحها .

ب-ومنها إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما قد جرت به العادة بقوله تعالى :-

---

[1] -سورة النور من الآية رقم ٣٩

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) [1] فهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به ، وذكر وجه الشبه فى الآية بقوله : وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما وإهلاكهما إياهما ، وفى ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة ، كما ذكر آيات أخرى لذلك .

جـ-ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة كقوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) [2] ويبين وجه الشبه بقوله : وقد اجتمعا فى الجهل بما حملا ، وفى ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية ، واستعرض كثيرا من الآيات لهذا اللون .

د-ومنها إخراج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له قوة فيها كقوله تعالى (وَلَهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ) [3] وقد اجتمعا فى العظم ، إلا أن الجبال أعظم ، وفى ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما فى ذلك من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها .

---

[1] - سورة القمر الآيتان (١٩،٢٠).
[2] - سورة الجمعة من الآية رقم (٥) .
[3] - سورة الرحمن الآية رقم (٢٤).

وهكذا نجد أن التشبيه قد نما وتطور على يد الرماني ، فقد عرفه ، وذكر له أقساماً من حيث الحسية والعقلية ، وغيرهـا وتكلـم عـن الأدلة ، وعن وجه الشبه ، والطرفين فى كل ما ذكـره مـن الآيـات الكريمة ، وشرح هذه الآيات شرحا وافيا ، لبيان بلاغتها ، واقتصـر على التمثيل بالآيات ، لأنه يكتب فى الإعجاز ، كما تحدث عن أغراض التشبيه وتكلم عن قيمة هذا الأسلوب وتفاوت الشعراء فى ذلك .

ولم يسبق الرماني إلى هذه التقسيمات التـي ذكرهـا ، وكـانت نيراسا لمن جاء بعد الرمانى ، فاهتدى بها وسار على نهجها .

فقد أخذ عنه أبو هـلال العسـكري المتوفـى سـنة ٢٩٥هـ تقسيماته للتشبيه التى ذكرها ، ومثل لها بالأمثلة التى ذكرها وشرحها وقد جعل أبو هلال كل ما ذكره الرمانى من أقسام التشبيه فـى بدايـة كلامه عن التشبيه فى الصناعتين ، واتفق معه فى هـذه التقسـيمات وأمثلتها وبيان الطرفين والوجه ، حتى لا نكاد نلمـس الفـرق بيـن الرماني والعسكري فى هذا .

وإذا أردنا أن نقف على ما صنعه أبو هلال فى باب التشبيه غـير ما أخذه عن الرماني ، وجدنا أنه يذكر له تعريفـا فيقـول : التشـبيه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب منـاب الآخـر بـأداة التشـبيه ، ويتحدث عن حذف الأداة فيقول : وقد جاء فى الشعر وسـائر الكـلام بغير أداة التشبيه .

كما يذكر أنه يصح تشبيه الشيء بالشيء جملة ، وإن شابهه من وجه واحد ، كقولك : وجهك مثل الشمس ومثل البدر ، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما وعظمهما ، وإنما شبهه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن .

ثم يذكر أقسام التشبيه وأمثلتها كما هي عند الرماني ، وبعد ذلك يذكر أمثلة ، يوضح فيها الطريقة المسلوكة في التشبيه من حيث تشبيه عالي الرتبة بالنجم ، والجواد بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والسهم الماضي بالسيف ، والحليم بالجبل ..الخ .

ويذكر أن هناك قوما اشتهروا بصفات محمودة فصاروا فيها أعلاما فيشبه بهما الصفات كما تم في الجود ، وسحبان في البلاغة ..الخ .

ويذكر فائدة التشبيه بقوله : إنه يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً ، وهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه ، وقد جاء عن القدماء وأهل من جيل ما يستدل به على شرفه وفضله ، وموقعه ، من البلاغة بكل لسان ، ومن ذلك ما قاله صاحب كليلة ودمنة : صحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت على المنتن حملت نتنا ، وإذا مرت على الطيب حملت طيبا ، ويضرب أمثلة كثيرة لبيان فضيلة التشبيه وثمرته ، ويقسم التشبيه بعد ذلك أقساما أخرى مستعينا بما ذكره ابن طباطبا حيث يقول :

والتشبيه فى جميع الكلام يجرى على وجوه :

-منها تشبيه الشىء بالشىء صورة كقوله تعالى (وَالقَمَـــرَ قَدَّرْنَـــاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ)[1] ويوازن بين الآية وأمثلـــة مـــن الشعر ليبين جودة التشبيه فى الآية .

– ومنها تشبيه الشىء بالشىء لوناً وحســـناً كقولـــه تعـــالى : (كأنهن بيض مكنون) [2] ويذكر أيضا لهذا اللون أمثلة من الشعر .

-ومنها تشبيه الشىء بالشىء لونا وسبوغا .

-ومنها تشبيه الشىء بالشىء لونا وصورة ، كقول أمرؤ القيس:

حملت ردينيا كأن سنانه ∴ سنا لهب لم يتصل بدخان

-ومنها تشبيه الشىء بالشىء حركة كقول الشاعر :

كأن مشيتها من بيت جارتها ∴ مر السحابة لا ريث ولا عجل

-ومنها تشبيه معنى كقول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب ∴ إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

– كما يذكر أن التشبيه يكون بغير أداة كقول أمرئ القيس :

له أيطلا ظبى وساقا نعامه ∴ وارخاء سرحان وتقريب تتفل

-ويذكر أن هذا البيت من أجود التشبيه لأنه شبه أربعة أشــــياء بأربعة أشياء فى بيت واحد

---

[1] – سورة يس الآية رقم (٣٩).
[2] – سورة الصافات الآية رقم (٤٩)

ثم يذكر أمثلة أخرى جمعت عدة تشـــبيهات ، ويـــوازن بينـــها ، ويأخذ أبو هلال بعد ذلك فى استعراض نماذج مـــن التشـــبيه الغريـــب الجيد من شعر القدماء والمحدثين فيقول : ونحن نورد ها هنـــا شـــيئاً من غرائب التشبيهات وبدائعها ليكون مادة لمن يريد العمل برسمنا فى هذا الكتاب .

وقد أكثر من هذه الشواهد التي شملت أيضا أمثلة مـــن الاســـتعارة ، ذكرها على أنها من جيد التشبيه ، كقول أبى نواس :

يبكى فيلقى الدر من نرجس ∴ وَيَلْطِمُ الورد بعناب

• **ثم يعقد فصلا يتكلم فيه عن قبح التشبيه وعيوبه فيقول :**

والتشبيه يقبح إذا كان على خلاف ما وصفناه فى أول الباب مـــن إخراج الظاهر فيه إلى الخفى ، والمكشوف إلى المستور ، والكبير إلى الصغير إذا لم يكن بينهما مقاربة .

ويذكر الأمثلة للتشبيه القبيح ، ويوضح سبب هذا القبح ، وفـــى أثناء عرضه لقبح التشبيه وتوضيحه ، كان يُقَرب بين النقد والبلاغـــة وبذلك أثرى دراسة التشبيه .

والملاحظ أنه قد سار بالتشبيه خطوات إلى الأمام ، حيث عـــرض لمسائل لم يناقشها أحد من قبل ، بالإضافة إلى تقسيماته التي أخذهـــا

عن غيره كما أشرنا ، وهذه التقسيمات ما زالت غامضة لأنهم لم يضعوا لها التعريفات والضوابط التى تحددها[1].

وإذا تركنا أبا هلال العسكرى في القرن الرابع وجئنا إلى إمام البلاغة وعلمها في القرن الخامس ،وهو الإمام عبد القاهر الجرجانى لوجدنا كيف نما التشبيه ، واتسعت دراسته على يد عبد القاهر[2] .

وقد بدأ امام البلاغيين هذا الكلام عن التشبيه بتقسيمه الى ضربين:

الأول : التشبيه غير التمثيلى ، وهو ما كان وجه الشبه فيه أمراً بيّناً فى نفسه لا يحتاج الي تأول وصرف عن الظاهر ؛ لأن الوجه المشترك بينهما هو صفة المشبه به ، وهو متحقق بذاته فى الطرفين ، ويقع هذا التشبيه فى كل ما كان وجهه عقليا حقيقيا ، كالأخلاق ، والغرائز ، كالحلم ، والذكاء ، والعقل .

كما يقع التشبيه غير التمثيلى أيضا فى كل ما يدرك بالحواس سواء أكان مفردا أم مركبا ، كتشبيه الخد بالوردة فى الحمرة ، والرجل بالأسد فى الشجاعة .

الثانى : التشبيه التمثيلى وهو ما كان وجه الشبه فيه بين الطرفين محصلا بضرب من التأول ، وصرف عن الظاهر ، كقولنا كلامه كالعسل فى الحلاوة ، فإن الحلاوة ليست هى وجه الشبه لعدم

---

[1] - راجع الصناعتين ٢٢٦ - ٢٤٩.
[2] - راجع أسرار البلاغة ص٧٠ - ١٦٨

تحققها بذاتها فى كل من الطرفين ، لأنها من أوصاف المشبه بـه ، ولذلك احتاجت إلى تأويلها بميل النفس لها ، واستطابة النفـس وراحتها ، حتى يصح بعد هذا التأول اشتراك الطرفين فى ذلك .

ويذكر عبدالقاهر أن التشبيه التمثيلى يتفاوت قوة وضعفـاً مـن حيث الوضوح ، ولذلك يجعله على ثلاثة أضرب:

الأول : ما قرب مأخذه مثل حجة كالشمس فى الظهور.

الثانى : ما يحتاج إلى قدر من التأمل مثـل: ألفاظـه كالعسـل فـى الحلاوة.

الضرب الثالث : وهو ما تقوى فيه الحاجة إلى التـأويل كقـول مـن وصف بنى المهلب : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاهـا ، ويذكر أن هذا الضرب لا يفهمه إلا من ارتفع عن طبقة العامة.

-ثم تكلم عن الفرق بين التشبيه بمعناه العام والتمثيـل ، فذكـر أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، لأنه متفرع عليه ، ومثل للتشبيه بأبيات لابن المعتز ، ومثل للتمثيل بقول ابن المعتز :

أصبر على مضض الحسود ∴ فان صبرك قاتله .. الخ .

-ويقول صالح بن عبدالقدوس :

وإن من أدبته فى الصبا.. إلخ .

-ثم بين السبب فى حاجة التشبيه التمثيلى إلـــى التـــأول ، وهـــو أن الاشتراك يكون فى لازم الصفة ومقتضاها ،وأما التشبيه فالاشـــتراك يكون فى نفس الصفة ، ووضح كل ذلك غاية التوضيح .

وتكلم عن أقسام التشبيه التمثيلى من حيث الإفـــراد والـــتراكيب والتعدد ، فذكر أن الشبه العقلى ربما انتزع من شئ واحد ، كما فـــى انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل .

وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ، ثم يستخرج من مجموعها الشبه كقوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّـــورَاةَ ثُـــمَّ لَـــمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)[1] فالشبه منتزع من أحوال الحمـــار وهو حمله لكتب العلم النافعة ، وكد نفسه فيها ، مع عـــدم الاســـتفادة منها.

-ويقول عن التشبيه المتعدد : قد يجئ التشبيه معقوداً على أمريـــن ، ولكنهما لا يتشابكان هذا التشابك كقولهم :

هو يصفو ويكدر ، فقد جمعوا له الوصفين لكنهم لايريدون منهما الامتزاج والتشابك الحادث فى الآية ، لأنه لو أفردت أحدى الصفتيـــن عن الأخرى ظل التشبيه على حقيقته .

[1] ١- سورة الجمعة من الآية رقم (٥)

وهو بذكره للأضرب الثلاثة يريد أن يفرق بين التشبيه فى الآية الكريمة وبين قولهم هو يصفو ويكدر من حيث أن الآية ، من قبيل المركب والمثال من قبيل المتعدد.

- **ثم يبين صور انتزاع وجه الشبه فى التمثيل ، وهى :**

-أنه قد ينتزع الوجه من الصفة نفسها ، بحيث يستقل الوصف الظاهر عند انتزاع وجه الشبه كميل النفس المنتزع من الصفة الظاهرة للعسل .

-كما أنه قد ينتزع الوجه من الوصف ومما يتعلق ، به كقولهم لمن لا يحقق شيئا من سعيه : أنت كالراقم على الماء ، فالوجه منتزع من الرقم بشرط أن يكون على الماء ، ولا يصلح أن يؤخذ من الماء وحده ولا من الرقم وحده .

ثم تكلم عن جودة التمثيل ، فذكر أن التشبيه الذى هو أولى بأن يسمى تمثيلاً ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر ، حتى أن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضاً ، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر ، وأن يراعى فى هذه الجمل أن تنسق الجملة الثانية على الأولى والثالثة على الثانية وهكذا ، وهذا بخلاف الجمل فى التشبيهات المتعددة ، فإنها لا تتركب مع بعضها ولا تتناسق كما هنا ، ومثل لذلك بقوله تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ

مِنَ السَّمَاءِ) [1] ووضَّح أنه لا يمكن حذف شئ من هذه الآية أو تقديم جملة منها على الأخرى .

وعقد فصلا بعد ذلك للكلام عن مواقع التمثيل وثمرته وتأثيره في النفس ، فذكر أن التمثيل يجيء على ضربين :

- أحدهما :-أن يقع التمثيل فى أعقاب المعانى بأن يذكر المعنى الذى سبق من أجله التمثيل أولا ثم يذكر التمثيل عقبة .
- والضرب الثانى :- أن يبرز المعنى باختصار في معرضه ، وهو في كل من الحالين يلبس المعانى أبهة ويكسبها منقبة ، ويرفع من أقدارها ويشب من نارها ، ويضاعف قواها فى تحريك النفوس لها .

-فإذا جاء بعد المدح كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم .

ومثّل الإمام عبد القاهر للمدح بقول البحتري :

دان على أيدي العفاة وشاسع ∴ عن كل ند في الندى وضريب

كالبدر أفرط فى العلو وضوءه ∴ للعصبة السارين جد قريب

وإذا جاء فى الذم كان مسه أوجع ، وميسمه الذع ، وتعهد الفرق بين أن تقول : فلان يكد نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئا ،

---

[1] - سورة يونس الآية (٢٤).

وتسكت ، وبين أن تتلوا الآية الكريمة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّورَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... الأية﴾ (١)

والفرق بين أن تقول أرى قوما لهم بهاء المنظر وليس لهم مخبر وتقطع كلامك عند هذا ، وبين أن تتبع بقول بن لنكك :

فى شجر السرور منهم مثل ∴ له رواء وماله ثمر .

وانظر إلى المعنى فى الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ، ويفتر ثغره ويبسم ، ويذكر أمثلة كذلك للتمثيل من المدح والحكمة وغيرها .

ثم تحدث عن الأسباب التى تستدعى أن يفخم المعنى بالتمثيل ويشرف ويكمل ؛ لأن التمثيل ينقل النفس مما يدرك بالعقل إلى ما يدرك بالحواس ، ويعلم بالطبع ، وينقلها للعيان والمشاهدة .

وقد يرجع أنس النفس بالتمثيل ، لما يزيله من الشك ؛ لأنه يصحح المعنى ويقرر أن وجوده جائز كما فى قوله .

فإن تفق الأنام وأنت منهم ∴ فإن المسك بعض دم الغزال

فادعاء الشاعر تفوق بعض الجنس على أصله فى حاجة إلى تصحيح هذا الإدعاء فقال " فإن المسك بعض دم الغزال " .

---

(١) -سورة الجمعة الآية رقم ٥ .

ويجئ التمثيل لبيان المقدار كقوله :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض ∴ على الماء خانته فروج الأصابع

ويذكر أن من أسباب روعة التمثيل تصور الشبه من الشئ في غير جنسه ، وهو مذهب من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل ، وكلما كان التباعد أشد كانت التشبيهات إلى النفوس أعجب ، ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله :

ولاز وردية تزهو بزرقتها ∴ بين الرياض على حمر اليواقيب

كأنها فوق قامات ضعفن بها ∴ أوائل النار في أطراف كبريت

أغرب وأعجب وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق .

وذكر عبد القاهر أن التمثيل يعمل عمل السحر في التأليف بين المتباينين ، وأنه يجعل الموت نفسه حياة مستأنفة فيقال : إنه بالموت استكمل الحياة ، حين يقال : فلان عاش حين مات ، وذلك بذكراه العطرة ، ويكسب التمثيل جمالاً ؛ لأنه يأتيك من الشيء الواحد بتشبيهات عدة ، فيعطيك من القمر الشهرة والنباهة والرفعة ، كما يعطيك الكمال عن النقصان ، والنقصان عن الكمال .. الخ .

ووضع فصلا بيَّن فيه أن المعنى إذا جاء ممثلا فإنه يحتاج في طلبه إلى الأناة والفكر ، وعند تحصيله تحدث اللذة ؛ لأنه من المركوز في الطبع أن الشئ إذ نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى.

ثم وضح بعد ذلك الغرض من كون التمثيل بعيداً يحتاج إلى طـول تأمل ، وأنه لا يدرك إلا بعد تعب ، بأن هذا إنما يرجع إلى دقة التمثيـل وبراعته ، وهذا بخلاف التعقيد الذى يخل بالمعنى ويفسده .

كما وضَّح أنه لا منافاة بين حاجة التمثيل إلى طول النظر ، وبين ما هو معروف من أن خير الكلام ما كان معناه أسرع إلى القلب مـــن لفظه إلى السمع ؛ لأن هذه الحاجة إلى الفكر تتناسب مع معنى الكلام .

وعندما مدح عبدالقاهر الجمع بين المختلفين فى التمثيل لم يـــرد بذلك مجرد جمع بين أى مختلفين ، ولكن يقصد إلى إصابـــة التشـــبيه بينهما ولذلك يقول :-

واعلم أنى لست أقول لك إنك متى ألفت الشئ ببعيـد عنـــه فـــى الجنس على الجملة ، فقد أصبت وأحسنت ولكن أقوله بعـــد شـــرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس وفى ظـــاهر الأمـــر شـــبها صحيحاً ، وتجد الملائمة والتأليف بينهما مذهباً وسبيلا ، ولم أرد أنـــك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل فى العقل ، وإنما المعنـــى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها فإذا تغلغل فكرك فأدركـــها فقد استحققت الفضل.

وبعض التشبيه كالغائب وبعضه كالبعيد لا ينال إلا بعد فكر ،ويعلل السبب فى قرب التشبيه أو بعده بأمرين فيقول :

إن الجملة أبدا أسبق إلى النفوس من التفصيل ، وأن البديهة ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ، كتشبيه حمرة الخد بحمرة التفاح ، فإن زاد تفصيله ازداد الأمر طلبا للفكر كتشبيه سقط النار بعين الديك ، والمقابلات التى تريك الفرق بين التفضيل والجملة كثيرة ، ويضرب أمثلة كثيرة لبيان كيفية التفصيل فى التشبيه ، وهذا هو السبب الأول .

أما السبب الثانى : فهو أن مما يقتضى كون الشئ على الذكر وثابتا فى النفس أن يكثر دورانه على العيون ، فالشبه الذى يرجع إلى هيئة من شأنها أن تبصر أبدا ، فالتشبيه عليها نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفى الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات بين الطرفين .

- **ويتحدث عن كيفية وقوع التفصيل فيقول :-**

إن محصوله على الجملة أن معك وصفا أو أوصافا تنظر فيها واحدا واحدا وتفصل بالتأمل بعضها من بعض ، والتفصيل يقع على وجوه :

-أن تدع بعضا وتأخذ بعضا كقوله " سنا لهب لم يتصل بدخان .

-أن تنظر فى المشبه فى أموره لتعتبرها كلها ، وتطلبها فيما يشبه به .

-أن تنظر إلى خاصة فى بعض الجنس كالتى تجدها فى عين الديـك ، ويعقد عبد القاهر مجموعة موازنات بين عدة أبيات ، لبيان فضـــل بعضها على الآخر نظراً لدقة التفصيل ، وستمر عليك فـــى منـــهج البلاغة ، وعقد عبدالقاهر فصلا وضح فيـــه أن التشـــبيه يحســن ويزداد دقة اذا جاء فى الهيئات التى تقع عليها الحركـــات ، وهـــو بعينه ما ذكره الخطيب فى الإيضاح مع أمثلته التى مثل لـــها عبـد القاهر.

وعقد فصلا آخر تكلم فيه عن وقوع القلب فـــى التشـــبيه غـــير التمثيلى ، وأنه يحسن فيه دون التشبيه التمثيلى ؛ لأن الاشتراك فـــى التمثيل يكون فى مقتضى الصفة ولازمها ، ولأنه يكـــثر فـــى تشـــبيه المعقول بالمحسوس فلا يليق أن نعكس فيه فنقول : عسل فى الكلام .

– ويمثل لقلب التشبيه فى غير التشبيه التمثيلى بقول البحترى :

شقائق يحملن الندى فكأنة ∴ دموع النصابى فى خدود الخرائد

– ويمثل لقلب التشبيه فى التشبيه التمثيلى بقول الشاعر :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمة ∴ نجاة من البأساء بعد الوقوع

فالنجاة من البأساء أمر معقول ، وخروج البدر من الغيـــم أمـــر محسوس ، وقد عرف أن يشبه التخلص من البأساء بالبدر يخرج مـــن الغيم .

• **كما عقد عبد القاهر فصلا تكلم فيه عن الفرق بين التشبيه والاستعارة فقال :**

والتشبيه كالأصل فى الاستعارة وهى شبيهة بالفرع له أو صورة مقتضبة من صوره ، وعدد فروقا بينهما هى :

أ - أن الاستعارة تعتمد على نقل اللفظ عن معناه فى اللغة ، والتشبيه لا نقل فيه للفظ ، لأنه لو نقل فيه اللفظ لكان مجازا ، وذلك محال ؛ لأن التشبيه معنى من المعانى والمجاز لفظ ، وللتشبيه أدوات تدل عليه ودلالتها على التشبيه من قبيل الحقيقة .

ب- يجب أن تفيد الاستعارة حكما زائدا على المراد بالتمثيل ؛ لأنه لو كان المراد واحداً فيهما لصح أن تطلق على كل تمثيل استعارة ولم يكن لتعريفها بنقل اللفظ عن أصله معنى .

ج- التشبيه علة للاستعارة وسبب فى فعلها ، والتشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة فيه .

د- الاستعارة تعتمد على إسقاط المشبه من أسلوبها بخلاف التشبيه الذى يعتمد على طرفيه الموجودين لفظا أو تقديرا .

هـ - أنه لا يصلح كل مشبه به لأن يكون استعارة ، وذلك إذا كان وجه الشبه خفيا كقول النابغة :

" فانك كالليل الذى هو مدركى "

فلو قلت : فررت منك وجدت ليلا يدركنى وإن ظننت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد قلت ما لا تقبله الطباع .

ثم تكلم عبد القاهر عن الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المذكور فيه الطرفان ، دون الوجه والأداة ووضح القول فى ذلك غاية التوضيح .

هذا ما صنعه الإمام عبد القاهر فى التشبيه ، وقد رأينا أن جهوده قد أنصبت على التشبيه التمثيلى ، ويرجع إليه الفضل فى توضيح هذا اللون وإبرازه ، وضبطه والإشادة به ، وبيان قيمته ومزيته ، وما يحدثه من تأثير فى النفوس فى شتى أغراض الشعر .

ودراسته للتشبيه دراسة أدبية نقدية تدل على براعته وقوة عقله ، وقد وازن بين مجيء المعنى بالتمثيل ومجيئه بدونه ليريك فضل التمثيل .

كما أن موازنته بين الشعراء فى تناولهم للغرض الواحد ، لبيان سمو الشاعر بالمعنى وتقصير الآخر فيه تعد من أهم الدراسات التطبيقية التى مزجت بين البلاغة والنقد ؛ لأن البلاغة تهدف إلى حسن التعبير والجمال فى القول .

وقد ابتكر عبد القاهر فى كل دراساته التحليل الأدبى للشواهد ، لتذوق ما فيها من جمال المعنى وحسن التصوير.

ومن ابتكاره هنا : تقسيمه التشبيه إلى مفرد ومتعدد ومركب وكذا تفريقه بين التمثيل وغير التمثيل ، وتفريقه بين التشبيه

والاستعارة من الأمور التى كان له الفضل فى السبق إليها ، وكذا كلامه عن الحسية والعقلية ، وتفريقه بين التشبيه القريب والبعيد .

كما يرجع إليه الفضل فى التفرقة بين بعد التشبيه ودقة مسلكه وبين التعقيد الذى يفسد الكلام.

ومما سبق إليه أيضا بحث التفصيل فى التشبيه ، ومراعاة كل الصفات فى المشبه أو بعضها . هذا بالإضافة إلى العرض الشيق والجذاب ، وإذا أردنا أن نخص جهود عبد القاهر فى التشبيه أو غيره من أبواب البلاغة لوجدناها تفوق الحصر .

وقد استفاد كل من جاء بعد عبد القاهر بما كتبه عن التشبيه من أقسام فكانت عمادهم بعد ذلك فى تقسيماتهم للتشبيه إلى أقسامه المتعددة .

- **السكاكى والخطيب :**

إذا نظرنا إلى ما صنعه السكاكى فى بحث التشبيه لوجدنا اختفاء الدراسة الأدبية لهذا اللون البلاغى الجذاب ، ووجدنا أن هم السكاكى قد انحصر فى التقسيمات والضبط للقواعد ، مع عدم العناية بالتحليل والتذوق ، بخلاف ما رأينا عند عبد القاهر .

ويبدأ السكاكى كلامه عن التشبيه فى المفتاح ، ببيان كيف دخل فى علم البيان وأن الاستعارة تبنى عليه ، كما يتكلم عن منزلة التشبيه ، ويترك تعريفه ، ولكن الخطيب يذكر له تعريفا ويشرحه ، ويفرق

بينه وبين الاستعارة ، ويذكر الخطيب تأثير التشبيه وفائدته بنقل كل ما ذكره عبدالقاهر فى أسرار البلاغة .

وتكلم السكاكى عن الطرفين ،والوجه ، وأحوال التشبيه والغرض من التشبيه .

وفى كلامه عن الطرفين : تكلم عن كونهما حسيين أو عقليين أو وهميين أو خياليين وذكر أمثلة مختصرة لذلك .

وجاء الخطيب فتكلم عن الطرفين من جهة أخرى زادها عن السكاكى وهى تقسيمه للطرفين إلى تشبيه مفرد بمفرد - وتشبيه مقيد بمقيد ، وتشبيه المفرد بالمقيد، وتشبيه المقيد بالمفرد ، وتشبيه مركب بمركب ، وتشبيه متعدد بمتعدد ، وتكلم عن الفرق بين المركب والمتعدد ، وتشبيه المفرد بالمركب ، وتشبيه المركب بالمفرد ، وقسم التشبيه المتعدد إلى عدة أقسام أيضا هى :

-الملفوف : ما أتى فيه بالمشبهين أولاً ، ثم بالمشبه بهما ثانيا أو العكس.

-المفروق : ما أتى فيه بكل مشبه ومشبه به معا.

-التسوية : وهو ما تعدد فيه المشبه دون المشبه به .

-وتشبيه الجمع وهو ما تعدد فيه المشبه به دون المشبه على عكس تشبيه التسوية .

وتكلم السكاكى عن وجه الشبه : فبين حسيته ، وعقليته ، وإفراده ، وتركيبه ، مستخدماً فى ذلك المنطق والفلسفة التى تبعد بالبلاغة عن طبيعتها من التذوق .

كما تكلم عن مجئ وجه الشبه من طرفين حسيين أو عقليين أو مختلفين ، ويذكر أمثلة لذلك أيضا ، لا تخلو من جفاف الفلسفة والمنطق .

كما قسم التشبيه إلى تمثيلى وغير تمثيلى ، وذلك باعتبار الغرض من التشبيه ، وذكر لذلك بعض ما مثل به عبدالقاهر ، مما كان الوجه فيه عقلياً غير حقيقى وكان مركباً ، ويخالف الخطيبُ السكاكى فى تشبيه التمثيل حيث يذكره فى بحث الوجه ،كما يخالفه فى مفهومه حيث جعله راجعا إلى ما كان وجهه وصفاً منتزعا من متعدد ، ومثل له بأمثلة مما ذكرها السكاكى وأضاف أمثلة للمركب الحسى .

وقسم الخطيب التشبيه باعتبار وجهه كذلك إلى مجمل وهو ما لم يذكر فيه وجه الشبه ، ومفصل وهو ما ذكر فيه وجه الشبه .

وأما أحوال التشبيه فيتكلم عنها السكاكى من كونه قريباً أو بعيدا ، ويقسم التشبيه إلى قريب وبعيد ، ويذكر أسباب القرب والبعد مستنبطاً ، كل ما ذكره من كلام عبد القاهر ، ويذكر أمثلة لهذا كما يتكلم عن التشبيه المقبول والمردود .

وأما الخطيب فينقل كلام عبد القاهر فى كلامه عن التشبيه القريب والبعيد .

ويتكلم السكاكى عن الغرض من التشبيه ، وأنه يعود إلى المشبه فى الغالب وذلك : لبيان حاله ، أو بيان مقدار حاله ، أو بيان إمكان وجوده ، أو لتقريره ، فى نفس السامع أو لتزيينه أو تقبيحه أو لاستطرافه ، وقد يرجع الغرض إلى المشبه به من إيهام السامع أن المشبه أتم من المشبه به فى وجه الشبه ، ويمثل لذلك بما ذكره عبد القاهر .

وتحدث السكاكى كذلك عن تشبيه التضاد وعرفه ومثل له ، وتبعه فى ذلك الخطيب .

ويذكر الخطيب تقسيما آخر للتشبيه باعتبار الأداة ، من حيث كونها محذوفة أو مذكورة .

وقد تركت الكلام عن التشبيه عند الخطيب بالتفصيل ، لأنه موضع دراستكم هذا العام ولا يخفى عليكم تقسيماته وأمثلتها .

➢ **والخلاصـــــة :**

أن التشبيه بدأ الكلام عنه فى القرن الثـــانى مجمـــلا لا يتجـــاوز المعنى اللغوى عند أبى عبيدة .

ويتناول الفراء تفصيل طرفى التشبيه فى كتابه " معانى القــرآن " تفصيلا أقرب إلى الإجمال ، كما يشير إلى وجه الشبه بإيجاز.

وفى القرن الثالث : جاء الجاحظ فتحـــدث عـــن وجـــه الشـــبه وتحقيق التشابه بين الطرفين أثناء كلامه عن تشبيهات القرآن الكريم.

وأما المبرد: فإنه يدرس التشبيه فيكثر من الشواهد التى تشـــمل الاستعارة أيضا ، وهذه الشواهد الكثيرة ينقصها التحليـــــل والدراســـة المتأنية ، ولم يتعرض المبرد لتعريف التشبيه ، ولا تحديد أقســــامه ، كما لم يتكلم عن الطرفين ولا وجه الشبه.

وقد سار على نهج المبرد ابن المعـــتز بعـــرض نمـــاذج كثـــيرة للتشبيه ، من غير ضبط للأقسام أو للتعريف .

أما ابن طباطبا فكان أكثر تفصيلا ممن سبقوه فى دراسته للتشبيه ، وذكر عدة أقسام للتشبيه استفاد بها من جاء بعده من العلماء كـــأبى هلال وغيره .

وفى القرن الرابع : نجد قدامة بن جعفر قد خطا بمبحث التشـــبيه خطوات لا بأس بها ، حيث بين معناه ، وقسمه و ميز كل قســـم مـــن

غيره ، بذكر صفاته ، وذَكَرَ العديد من الصور التشبيهية ، وقد أسهب كثيراً فى عرض ما يحسن من التشبيه ويذكر له الكثير من الشواهد .

ويجئ الرمانى : فيتكلم عن الإعجاز ويتعرض للتشبيه فيعرفه ، ويجعله قاصراً على ما فيه أداة التشبيه ، ويذكر أقساماً جديدة للتشبيه غير التى ذكرها من تقدمه ، ويقتصر فى تمثيله على الآيات القرآنية ، لأنه كان يتحدث عن الإعجاز ، وقد تكلم الرمانى كثيراً عن وجه الشبه فيما ذكره من الآيات وبين الغرض من التشبيه فى كل مثال ذكره .

وأما أبو هلال العسكري : فقد عرف التشبيه ، ووضح أداته ، والغرض من التشبيه وفائدته ، وذكر أنه كثير يجرى على كل الألسنة ، وتكلم عن طريقة العرب فى تشبيهاتهم ، وتحدث عن أقسام التشبيه وأنواعه واستفاد فى تقسيماته من ابن طباطبا والرماني .

وتكلم أبو هلال عن التشبيه المحذوف الوجه والأداة ، وذكر أنه تشبيه وليس استعارة ، وقد ذكر أمثلة للاستعارة ضمن ما ذكره فى التشبيه ، كما عقد أبو هلال فصلا لقبيح التشبيه قرب فيه بين البلاغة والنقد ، وكان له الأثر الواضح فى نمو البلاغة .

➢ **والملاحـــظ :**

أن جهود العلماء فى التشبيه خلال القرن الرابع كانت مثمـــرة ، فقد عرضوا له الكثير من الصور والأقسام التى ترجع إلى الغرض منه والأقسام التى ترجع إلى وجه الشبه باعتبار الحركة واللون .. إلخ .

ومن ثم اتضح مفهوم التشبيه وبسط القول فيه عند كل من قدامه والرمانى وأبى هلال .

وكان الجهد الصادق الخصب فى مبحث التشبيه متمثلا فى دراسة الإمام عبدالقاهر الجرجانى الذى وسع دائرة دراســـته فـــى مباحثـــه وأقسامه وأمثلته .

وتجلى أثر عبد القاهر بوضوح فى دراسته لتشبيه التمثيل الـــذى لم يكن معروفاً بهذا الاسم قبل عبد القاهر ، بل كان مختلطا بـــاللون الآخر ، وكانت كلمة التمثيل مرادفة لكلمة التشبيه ، ولكن الإمام عبـــد القاهر كان له فضل السبق فى هذا ، حيث ميزه عـــن التشـــبيه غـــير التمثيلى وحدد مفهومه وضوابطه ، وتحدث عن أثره فى النفس وســـر هذا الأثر فى كل أغراض الكلام من المدح والهجاء والرثاء ... إلـــخ . من خلال عرضه الأدبى الذوقى القائم على الفهم والتحليل والموازنـــة بين النماذج الكثيرة للشعراء فى التمثيل على طريقة النقد الأدبى .

وقد كان النقاد قبل عبد القاهر يفضلون البيت لما فيه من التشبيه دون أن يحللوا الشواهد التى يقومون بعرضها ، بخلاف عبـــد القـــاهر الذى كان له فضل الابتكار فى هذه الدراسة .

كما كان تقسيم التشبيه إلى مفرد ، ومتعدد ، ومركب ، تجئ منه صورة واحدة من ابتكار عبدالقاهر ، كما انفرد بتوضيح الفرق بين دقة التمثيل وبعده ، وغموض التشبيه ، والتعقيد الذى يخل بالغرض ويفسد معه الكلام .

والحديث عن التفصيل الواقع فى التمثيل أمر توصل إليه عبد القاهر فى دراسته للتشبيه ولم يسبقه أحد من العلماء فى هذا .

وإذا وصلنا بالتشبيه إلى عهد السكاكى ومن سار على دربه وجدنا أهم ما يمتاز به بحثهم للتشبيه : العناية بالتقسيم والضبط وحصر هذه الأقسام من حيث الحسية والعقلية ، والوهمى ، والخيالى ، والإفراد ، والتركيب ، والتعدد .

وكان لعبد القاهر الأثر الواضح فى الخطيب القزوينى الذى تأثر به إلى حد كبير ، ونقل عنه كثيراً فى بحثه لباب التشبيه غير أنه خالف عبد القاهر والسكاكى فى تشبيه التمثيل .

وقد زاد السكاكى بعض الأغراض عما ذكره عبد القاهر وتبعه الخطيب فى هذا ، كما زاد الخطيب فى أقسام التشبيه باعتبار الطرفين بعض الأقسام من تشبيه ملفوف ومفروق ، وتسوية ، كما زاد فى أقسام وجه الشبه التشبيه المجمل والتشبيه المفصل ، وباعتبار الأداة ذكر المرسل والمؤكد ، وكل من جاء بعد السكاكى والخطيب لم يزد شيئا عما ذكروه ، وإنما سار على دربهما ونهجهما .

(دراسة الكناية وتطورها)

ذكر العلماء الكناية فى كتبهم ومثلوا لها ، ولكننا سنبدأ فى بيـــان تطورها من عهد عبدالله بن المعتز ، لبيان كيف تطورت الدراسة لـــهذا اللون .

الكناية عند ابن المعتز :-

أورد ابن المعتز الكناية تحت الموضوعات التى أسماها " محاسن الكلام والشعر " فى كتابه البديع الذى ألفه سنة ٢٧٤هـ وقـــد ذكــر ألوانا شتى لمحاسن الكلام ، ومن هذه المحاسن الكناية والتعريـــض : وهو فى ذكره لهذا اللون لم يذكر له تعريفا أو تقسيما ، كما لم يمـــيز بينه وبين التعريض ، ولكنه يتحدث عن الكناية بعرضه لأمثلة لها مـــن الكلام ومن الشعر دون أن يبين موضع الكناية أو يشرح هذه الأبيات ، ولذلك نراه يقول : ومن محاسن الكلام التعريض والكناية

قال على ﷺ عنه لعقيل ومعه كبش له - أحد الثلاثة أحمـــق ؟ فقال عقيل : أما أنا وكبشى فعاقلان ؟

وقال أحد أولاد العباس بن محمد لابنه : يا ابن الزانية ، فقـــال : الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك.[1]

---

١ - كنى بذلك عن أن أباه أيضا مثل أمه فيما وصفها به ، وانظر البديع ص ٦٥.

- **وقال بشار :**

وإذا ما التقى ابن أعيا وبَكْر ∴ زاد فى ذا شبرا وفى ذاك شبرا .

أراد أنهما يتبادلان

وقال آخر فى حجام :

أبوك أب ما زال للناس مرجعا ∴ لأعناقهم نقر كما ينقر الصقر

إذا عوَّج الكتاب يوماً سطورهم ∴ فليس بمعوج له أبدا سطر .

وهكذا يعرض الأمثلة دون الوقوف عليها أو تحليلها أو بيان موطن الكناية .

وجاء بعد ابن المعتز قدامة بن جعفر / ت٣٣٧هـ فتناول الكناية فى كتابه نقد الشعر ، وسماها إردافا ،ووضع لها تعريفاً ، ومثل لها بأبيات من الشعر ، ووضح مكان الكناية فى كل بيت ذكره لكنه لم يقسمها أو يفرق بينها وبين التعريض.

وقد جعل الكناية من باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، وقد عرفها بقوله :

الإرداف : وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع ، بمنزلة قول الشاعر

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل ∴ أبوها وإما عبد شمس فهاشم

وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخـاص به ، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد وهو بعد مهوى القرط.

والمعروف أن هذا البيت كما ذكره كناية عن طول عنق المـرأة ، لأن معنى بعد مهوى القرط: أن تكون المسافة بين الأذن والكتف الـذى يسقط عليه القرط بعيدة ، وهذا من الصفات التى كانوا يحبونـها فـى المرأة .

و يمثل قدامة أيضاً للكناية بقول امرئ القيس :

و قد أغتدى والطير فى وكناتها ∴ بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ويعلق على هذا البيت بقوله :

فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة و أنه جواد ، فلم يتكلـم باللفظ بعينه ، و لكن بأردافه و لواحقه التابعة له ، و ذلك أن سـرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد – و هى الوحوش– كالمقيدة له [1] إذا نحا نحوها فى طلبها .

و الناس يستجيدون لامرئ القيس هذه اللفظة فيقولون هـو أول من قيد الأوابد ، و إنما عنى بها الدلالة على جودة الفرس ، و لو قـال ذلك بلفظة لم يكن عند الناس من الاستجادة ما جاء من إتيانه بـالردف له.

---

[1] – المعروف أن " قيد الأوابد " من قبيل الاستعارة ، حيث شبه الفرس بالقيد لها حيث يمكن ادراكها والامساك بها ، وانظر نقد الشعر ٩٣.

و ينبه قدامة إلى أن كثرة الروادف أو غموض هذا الردف غـــير محمود ، لأنه يؤدى إلى الانغلاق و عدم فهم المراد .

(والجدير بالذكر أن كثرة الوسائط فى الكناية مما يعد من جـــودة الكناية عند المتأخرين من البلغاء ، و قد يقصد قدامة بكثرة الوســائط ما يسمى بالتعقيد المعنوى).

و إذا تركنا قدامة و ذهبنا إلى أبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـــ) فإنا نجده يذكر الكناية أيضاً فى البديع باسم الإرداف أيضاً ، كما فعــل قدامة ،ويذكر لها تعريفاً لا يخرج فى مضمونه عن تعريف قدامــــة إلا بتغيير بعض الكلمات ، و مثَّل لها من القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والشعر ، والأمثال ، وقد توسع أبو هلال فى ذكر الأمثلة و زاد فيــها ، و وضح الكناية فى كل منها ، ولكنه أيضاً لم يقســم الكنايــة إلــى أقسامها المعروفة .

و هكذا فإن دراسة الكناية تطورت إلى حدٍّ ما عند أبى هلال عــن طريق تنوع الشواهد و الإكثار منها ، و قد مثل بثلاث أمثلة مما ذكــره قدامة لها.

و من أمثلة الكناية عنده قول الله تعالى (فِيهِنَّ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ) [١] فيقول:

---

١ - سورة الرحمن من الآية رقم (٥٦)

و قصور الطرف موضوعة للعفاف على جهة التوابع و الإرداف و ذلك أن المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها ، فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف ، و العفاف ردف و تابع لقصور الطرف.

ثم ذكر حديثاً للنبى ﷺ بين موضع الكناية ، ثم مثل بأبيات شعر منها :

– – – – – – – – "فإنى جبان الكلب مهزول الفصيل"

كما مثل بقول المرأة تسأل رجلاً العطاء فقالت له : أشكو إليك قلة الجرذان "الفئران" ، و ذلك لأن قلة الفئران فى البيت ردف لعدم وجود الطعام فيه[1] ..... و هكذا .

و أما الباقلانى م /٤٠٣ هـ فإنه يذكر الأمثلة التى ذكرها قدامة فى الإرداف "الكناية" تحت باب الاستعارة [2] فى كتابه إعجاز القرآن .

وأما ابن رشيق القيروانى م/٤٥٦ هـ فإنه يذكر الكناية ضمن باب الإشارة ، و يذكر ضمن هذا الباب أيضاً أنواعاً من أقسام الكناية التى عرفت عند السكاكى فيما بعد ، وهى الإيماء ، والرمز ، والتلويح و التعريض ، يذكر كل ذلك تحت باب الإشارة ، ويمثل لكل نوع من هذه الأنواع بأمثلة من القرآن و الشعر ، و يوضح بعض هذه الأمثلة .

---

١ - راجع الصناعتين ٣٤١ - ٣٤٣.
٢ - راجع اعجاز القرآن ٧١.

و قد مثل للإشارة بأبيات منها :

جعلنا السيف بين الخدمنه ∴ و بين سواد لمته عذارا

فأشار إلى هيئة الضربة التى أصابها بها ، دون ذكرها وهذه إشارة ، لطيفة دلت على كيفيتها ، وإنما وصف أنهم ضربوا عنقه."كما مثل للتعريض الذى جعله نوعاً من الإشارة بقول كعب بن زهير :

فى فتية من قريش قال قائلهم ∴ ببطن مكة لما أسلموا زُولوا

فعرَّض بعمر بن الخطاب ﷺ و قيل بأبى بكرة ﷺ و قيل برسول الله ﷺ تعريض مدح .

كما ذكر من أمثلة التلويح المندرج تحت باب الإشارة قول النابغة فى وصف طول الليل:

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض ∴ و ليس الذى يرعى النجوم بآيب

يريد بالذى يرعى النجوم "الصبح" أقامه مكان الراعى الذى يغدو فيذهب بالإبل و الماشية .

هذا ، و موطن الاستعارة واضح فى هذا البيت .

و من أمثلة الكناية التى ذكرها ضمن الإشارة قول ابن مقبل ، و كان جافيا فى الدين يبكى أهل الجاهلية و هو مسلم فقيل له مرة فى ذلك فقال :

و ما لى لا أبكى الديار و أهلهـــــا ∴ و قد رادها رُوّادُعَكٍ و حِمْيَرا

و جاء قطا الأحباب من كل جانب ∴ فوقع فى أعطاننا ثم طيَّرَا

فكنى بذلك عما أحدثه الإسلام[1] .

و ابن رشيق كما نرى لم يضف شيئاً جديداً سوى تعداد بعـــض أقسام الكناية التى عرفت عند السكاكى فيما بعد على أنــها أقســام أو أنواع لباب الإشارة .

• **الكناية عند عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ**

تحدث عبدالقاهر عن الكناية فذكر تعريفها قائلاً: وهو : أن يريـد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، و لكن يجئ إلى معنى هو تاليه و تابع له فى الوجود فيومئ به إليـه ، و يجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم فى الكريم : هو كثـــير رمـــاد القدر ، – يعنون كثير القِرَى ، وفى المرأة : نؤوم الضحى ، يريــدون أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا معنى ثـــم لـــم يذكروه بلفظه الخاص به ، و لكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر مـــن شأنه أن يكون فى الوجود إذا كان المعنى الأول ،ألا ترى أنه إذا أكْـثِرَ القِرىَ كَثُر رماد القدر .

[1] – راجع العمده ١/٢٠٣-٣٠٥.

كما تكلم عبدالقاهر عن قيمة الكناية فقال : و قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، لأن قولنا : هو جم الرماد ، أبهى للمعنى و أنبل من أن تدع الكناية و تصرح بالذى تريد ، والمزية تكون فى إثبات المعنى ، لأن الكناية تؤكد إثبات المعنى المراد و تقويته لأن إثبات الصفة بإثبات دليلها أكد و أبلغ من أن تجئ إلى الصفة فتثبتها هكذا ساذجاً غُفْلاً .

ومعنى ذلك أنك تأتى فى الكناية بالدليل على الصفة التى تريد إثباتها ، ذلك أن كثرة رماد القدر دليل على كثرة القِرَى فى العصور السالفة و هو ما نريده من الكناية[1] .

و يقول : إن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول "معنى اللفظ فى اللغة" الذى تجعله دليلاً على المعنى الثانى" أى المعنى الكنائى "ووسيطاً بينك وبينه متمكّناً فى دلالاته يسفر بينك و بينه أحسم سفارة ، حتى يُخَيَّلَ إليك أنك فهمته من حاق اللفظ "يعنى نفس معناه" و ذلك لقلة الكلفة فيه عليك ،وسرعة وصوله إليك مثل قوله :

لا أمتِّعُ العوذ بالفصال ولا ∴ أبتاع إلاّ قريبة الأجل

فمعنى الجملة الأولى : أنه لا يترك الفصيل لأمه تستمتع به ، أى أنه يذبحه لأضيافه ، وهذا المعنى يؤدى بك فى يسر إلى أنه كريم يذبح

---

١ - دلائل الاعجاز ٥٢.

النوق للضيوف ، و دلالة المعنى الأول "اللغوى" على المعنـــى الثـــانى "الكنائى" واضحة لا خفاء بها .

و معنى الشطر الثانى أنه لا يشترى إلا الناقة القريبة الأجل التـــى تذبح بعد شرائها لإكرام الضيف ، و ذلك يدل علـــى الكـــرم ، و هـــو المعنى المراد ، ودلالة المعنى اللغوى هنا على المعنى الكنائى واضـــح أيضا .

و يتكلم عن التعقيد المعنوى الذى يؤدى إلى عدم فـــهم المعنـــى الكنائى المراد ، بسبب بعد الوسائط وعدم جريها على ما تعورف عليـــه لدى العرب .

فيقول : فإن كان المعنى الأول منقوص القوة فى تأدية ما أريـــد منه ، لأنه يعترضه ما يمنعه أن يقضى حق السفارة فيما بينك و بيـــن معناك ، ويوضح تمام الإيضاح عن مغزاك فانظر إلى قول العباس بـــن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ∴ وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

فدل بسكب الدموع على ما يوجبه الفراق من الحزن ؛ لأن البكاء أمارة الحزن و يجعل كناية عنه ، ولكنه أخطأ فى تصـــوره أن جمـــود العين دليل على السرور الذى يحققه دوام التلاقى ، لأن الجمـــود هـــو عدم بكاء العين فى حال الحزن و إرادة البكاء ، و لو كـــان الجمـــود يصلح لأن يراد به السلامة من البكاء ، و يصح أن تدل بـــه علـــى أن

الحال حال مسرة و حبور ، لجاز أن يدعى به للرجل فيقال : لازالــت عينك جامدة كما يقال : لا أبكى الله عينك ، و ذاك مــا لا يشك فــى بطلانه.

ويذكر الإمام عبد القاهر جمال الكناية بقوله : بدت فيها محاسـن تملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصف ، و رأيت شعراً شاعراً . و سحراً ساحراً ، وبلاغة لا يمكن لها إلا الشاعر المفلق و الخطيب المصقـع . ويتنبه عبد القاهر إلى الفرق بين الكناية عن الصفـة والكنايـة عـن النسبة فيقول :

وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرَّحا بذكرها ، مكشوفاً عن وجهها ولكن مدلولاً عليها بغيرها ، كان ذلك أفخم لشأنها ، وألطف لمكانـــها كذلك إثبات الصفة للشئ إذا لم تلقه إلى السامع صريحاً ، وجئت إليــه من جانب التعريض و الكناية ، والرمز و الإشارة ، كان له من الفضل والمزية ، ومن الحسن والرونق ما لا يُجهل موضع الفضيلـــة فيــه ، فإنهم يرومون وصف الرجل وإثبات معنى من المعانى الشريفة لـــه ، فيدعون التصريح بذلك ، ويكنون عن جعلها فيه بجمعـــها فـــى شـــئ يشتمل عليه ، ويتوصلون إلى ما أرادوا من الإثبات كقول زياد :

إن السماحة والمروءة و الندى ٠ ٠فى قبة ضربت على ابن الحشرج

أراد إثبات هذه الأوصاف للممدوح فترك أن يصرح فيقـــول : إن السماحة والمروءة و الندى لمجموعة فى ابن الحشـــرج أو مقصـــورة

عليه ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح ، فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه كناية عن كونها فيه ، فخرج كلامه بذلك إلى ما خـوج من الجزالة ، ولو أنه أسقط هذه الواسطة لمَا كان إلا كلامـــاً غفْــلا ، وحديثاً ساذجاً .

وقد عرض عبد القاهر كثيراً من أمثلة الكنايـــة عــن الصفـــة ، والكناية عن النسبة وبيَّن أن كلا منهما يجئ على صور مختلفة .

و عندما يتكلم عبد القاهر عن الكناية ، والاستعارة ، والتشـبيه ، فإنه يهدف إلى أن يطبق عليها فكرته من أن البلاغة لا تعود إلى اللفظ ، ولكن تعود ، إلى المعنى ، لأن حقيقة الكناية أنها إثبات لمعنى أنـــت تعرفه من طريق المعقول ، دون طريق اللفظ فقولهم : كثـــير الرمـــاد يريدون به كثرة الضيافة ، و ذلك لم يعرف من اللفظ ، بـــل معرفتـــه جاءت عن طريق أنه كلام قيل فى المدح ، و لا معنى للمـــدح بكـــثرة الرماد ، و لذلك فإنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على كثرة الطبـــخ للقِرىَ ، وذلك لأن كثرة الطبخ تؤدى إلى كثرة إحراق الحطب ، وذلـــك يؤدى إلى كثرة الرماد ، وهكذا السبيل فى كل ما كان كناية ، فالبلاغـــة فيه ترجع إلى المعنى لا إلى نفس اللفظ ([1]).

هذا ما ذكره الإمام عبد القاهر فى الكناية ، و يتضـــح عرضـــه الذوقى لهذا اللون البيانى وذكره للشواهد الكثيرة ، وتحليلها ، وبيـــان

---
[1] – راجع دلائل الاعجاز ٢٣٦-٢٤٢.

مزيتها ،وبلاغتها ، وفضلها على التصريح ، كما أنه ميز بين أقسامها من كناية عن الصفة أو عن النسبة ، وذكر كذلك عيب الكناية ، والتعقيد فيها ، وتكلم أيضا عن بعض ما أسماه السكاكى تنوع الكناية إلى إشارة وتلويح ورمز وإيماء.

وأما السكاكى م / ٦٢٦هـ فإنه يتناول هذا الفن بطريقته المعروفة فى دراسة كل أبواب البلاغة من حيث ذكر التعريف لها ، وبيان الفرق بينها وبين المجاز ،ثم تقسيمه لها إلى أقسامها الثلاثة المعروفة ، وهى الكناية عن الصفة ، والكناية عن الموصوف ،والكنايه عن النسبة ، مع تقسيم الكناية عن الصفة إلى بعيدة وقريبة ، وواضحة وخفية . ومثل لهذه الأقسام بأمثلة مما ذكره عبد القاهر وغيره.

وجاء الخطيب القزوينى فسار على نهج السكاكى فى ذلك من حيث التقسيم والتعريف وذكر الأمثلة ،وهذا أمر واضح جلى سبقت دراسته فى الإيضاح .

وقد تناول الكناية أيضا علماء آخرون كالعلوى فى الطراز ،وابن الأثير فى المثل السائر،وغيرهما ،من العلماء الذين تحدثوا عن جوانب أخرى فى ، الكناية مثل سر استعمالها أو فائدتها ،وقد تركنا ذكر هؤلاء لعدم الإطالة.

(الطباق و نمو دراسته)

يتكلم عبد الله بن المعتز فى كتابه البديع [١] عن الطباق فى الباب الثالث من أبواب البديع الخمسة ، و بدأ بتعريفه فى اللغة فقال :

قال الخليل رحمه الله يقال : طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو، فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان ، قد طابق بين السعة و الضيق .

و يذكر ابن المعتز كثيراً من أمثلته من القرآن الكريم ،والحديث النبوى ، وكلام البلغاء ، والشعراء من القدماء و المحدثين ، و كانت أمثلته مادة خصبة لمن جاء من بعده ، ليستفيد بها و يأخذ منها ، وأطلق المطابقة أيضاً على ما يشمل المقابلة ، كقول النبى ﷺ للأنصار : "إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع" .

و من الأمثلة التى أوردها قول الحسن : ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت ، وقول على رضي الله عنه : إن أعظم الذنوب ما صغر عند صاحبه ، وقول طفيل الغنوى :

بساهم الوجه لم تقطع أباجله ∴ يصان و هو ليوم الروع مبذول

وأورد ابن المعتز كثيراً من الشواهد للمطابقة الجيدة .

و ذكر المعيب من المطابقة ، ومثل لها من الشعر ، وغيره من الكلام ، ومن ذلك قول الأخيطل :

قلت المقام و ناعب قال النوى ∴ فعصيت أمرى و المطاع غراب

و قال : و هذا من غث الكلام وباردة ، وقال الطائى :

فيا ثلج الفؤاد و كان رضفاً ∴ و يا شبعى برؤيته و ريِّى

وهكذا نجد أنه عرف المطابقة بتعريفها اللغوى ، ولم يذكر تعريفها الاصطلاحى وعرض لها الكثير من الأمثلة الجيدة ، كما عاب المذموم منها .

و أما قدامة بن جعفر [2] فإنه يسمى الطباق باسم التكافؤ ، و يجعله من أوصاف المعانى ، ويعرفه بقوله : هو أن يصف الشاعر شيئاً فيأتى بمعنيين متكافئين أى متقابلين إما من جهة المصادرة ، أو السلب و الإيجاب ، أو غيرهما من أقسام التقابل مثل قول أبى الشعب العبسى :

حلو الشمائل و هو مر باسل ∴ يحمى الذمار صبيحة الأرهان

و يذكر ابن المعتز كذلك أمثلة لطباق الإيجاب ، ثم يمثل لطباق السلب بقول الفرزدق :

لعمرى لئن قل الحصا فى رجالكم ∴ بنى نهشل مالؤمكم بقليل

ثم يقول : فهذا ضرب من المكافأة من جهة السلب .

---

[1] – راجع البديع ٣٦-٤٧.
[2] – انظر نقد الشعر ٨٥ -٨٧ .

ويذكر أن المحدثين قد جاؤا من التكافؤ بأشياء كثيرة ، وذلك أنه بطباع أهل التحصيل والروية فى الشعر والتطلب لتجنيسه أولى منه بطباع القائلين على الهاجس بحسب ما يسنح من الخاطر مثل الأعراب ، ومن جرى مجراهم ، على أن أولئك بطباعهم قد أتوا بكثير منه .

و أما أبو هلال العسكرى : فيذكر الطباق فى الفصل الثانى من باب البديع فى كتابه الصناعتين[١] .

و يعرفه بقوله : قد أجمع الناس أن المطابقة فى الكلام : هو الجمع بين الشئ وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من أبيات القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد ، والليل والنهار ، ويذكر أن قدامه بن جعفر خالف إجماع الناس "يعنى فى جعل المطابقة اسماً للجناس "فقال : المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين فى البناء و الصيغة مختلفتين فى المعنى ، و أهل الصنعة يسمون النوع الذى سماه المطابقة باسم التعطف.

و يعرض أبو هلال أمثلة للطباق من القرآن الكريم ، و منها قوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ) [٢].و يوازن بين طباق

---

١ - الصناعتين ٢٩٧-٣١٠.

٢ - سورة الحج من الآية (٦١).

القرآن ، وطباق الشعراء فيقول: و منه قوله عز و جل(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) [1] و قد تنازع الناس هذا المعنى .

قال ابن مطير :

" تضحك الأرض من بكاء السماء ".

و قال آخر :

لا تعجبني يا سلم من رجل ∴ ضحك المشيب برأسه فبكى

فلم يقرب أحد من لفظ القرآن فى اختصاره ، وصفائه ، ورونقه ، وبهائه ، و طلاوته و مائه ، و كذلك جميع ما فى القرآن من الطباق.

كما مثل له بحديث النبى ﷺ وأورد منه ما هو من المقابلة و هو قوله ﷺ للأنصار : "إنكم لتكثرون عند الفزع و تقلون عند الطمع" كما يمثل للطباق كذلك من سائر الكلام ، ومن الشعر ، وفيها أمثلة للمقابلة أيضاً .

كما يذكر أمثلة للطباق المعيب نقلها عن ابن المعتز ، و يلاحظ أن أبا هلال يورد الأمثلة التى ذكرها ابن المعتز و يضيف إليها أمثلة أخرى من عنده .

ويجئ ابن رشيق القيروانى[1] : فيعقد بابا للمطابقة فى كتابه العمدة ويعرفها بأنها : الجمع بين الضدين فى الكلام أو بيت الشعر .

---

[1] - سورة النجم الآية رقم (٤٣)

و ينقد ابن رشيق قدامة فى تسميته الجناس طباقـــاً ، وتســميته الطباق مكافأة ، كما يورد تعريف الخليل بن أحمد والأصمعى والرمانى للمطابقة ،

ويذكر أمثلة للمطابقة مما ذكره السابقون عليه كابن المعـــتز ،و صاحب الوساطة ، و يوضح هذه الأمثلة أحيانا ،ويوجه إليـــها النقـد أحيانا أخرى ،ومن الأمثلة التى ذكرها من الشعر قول ابن المعـــتز أو ابن معذل :

هواى هوى باطن ظاهر ∴ قديم حديث لطيف جليل

كما يمثل بأقوال النبى ﷺ فيقول "ومن افضل كلام البشر :قــول النبى ﷺ : فى بعض خطبه "فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، و مـــن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، و من الحياة قبـــل الممـــات ، فوالذى نفس محمد بيده مابعد الموت من مستعتب ،وما بعد الدنيـــا دار إلا الجنة أو النار" و يعقب على ذلك بقوله "فهذا المعجز الذى لا تكلـف فيه و لا مطمع فى الإتيان بمثله .

كما يمثل ابن رشيق للمطابقة بآيات من القـــرآن و منـــها قولــه تعالى : (وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ) [٢] و يقول : و هذا من أملح الطبـــاق و أخفاه .

---

[١] - العمدة ٢/٥-١٢.
[٢] - سورة البقرة من الآية رقم ١٧٩.

كما ينقد القاضى الجرجانى بقوله : و مما استغربه الجرجانى من الطباق و استلطفه قول الطائى :-

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس ∴ قلنا الخط إلا أن تلك ذوابل

لمطابقته بـ (هاتا) و (تلك) وإحداهما للحاضر والأخرى ، للغائب فكانتا فى المعنى نقيضتين ، وبمنزلة الضدين هذا قوله .

و ليس عندى بمحقق ، إنما إحداهما للقريب والأخرى للبعيد المشار إليه ، ولكن الرجل أراد التخلص فزل فى العبارة .

و يذكر ابن رشيق أمثلة أخرى ويوضحها أو ينقدها ، كما يذكر أمثلة ظنها الناس من المطابقة ، ولكنها ليست منها .

وهكذا يدرس ابن رشيق الطباق هذه الدراسة المتأنية القائمة على التوضيح ، والتعليل مع النقد والتوجيه .

وابن سنان الخفاجى المتوفى /٤٦٦هـ جعل الطباق ضمن تناسب الألفاظ فقال : إن تناسب الألفاظ على وجهين :

أحدهما : أن يكون معناهما متقاربين ، و ثانيهما : أن يكون المعنيان متضادين أو قريبين من التضاد ، و انتقد الآمدى فى نقده لقدامة ، ودافع عن قدامة بالاستشهاد من كلام السابقين عليه.

وأورد ما ذكره مَنْ قبله من تقسيمهم المتضاد إلى طباق ومقابلة وإيجاب و سلب و اختار أن يسمى الجميع المطابق .

ويورد أمثلة للطباق الحسن ، وتكلم عن الخطأ فى التضـاد كمـا هو الحال عند ما يطابق بين الليل والصبح ، كما يمثل للطباق المتكلف المعيب ، وهكذا يدمج ابن سنان الطباق مع المقابلة .

و أما السكاكى : فانه تكلم عن الطباق بإيجاز حيث ذكر تعريفـه و مثل له من القرآن الكريم و الشعر .

➢ الطباق عند الخطيب القزوينى فى الإيضاح :

تكلم الخطيب عن المطابقة ، وعرفها بقوله : هى الجمـع بيـن المتضادين ، أى معنيين متقابلين فى الجملة ، سـواء كـان التقـابل بالتضاد كالسواد والبياض ، أم كان بغير التضاد كالعمى والبصر .

وذكر للطباق عدة صور من كونه بين لفظين من نـوع واحـد : اسمين أو فعلين ، أو بلفظين مختلفين .

كما قسّم الطباق إلى ظاهر وخفى ، كما قسمه إلى طباق إيجـاب وطباق سلب.

كما تحدث عما يلحق بالطباق ، وأورد أمثلة للطبـاق المعيـب ، ونلاحظ أن الخطيب قد اعتنى بدراسـة الطبـاق ، وحـدد صـوره ، وأقسامه ، وذكر له أمثلة من كل نوع ، وبين أن هنـاك مـا يُلحـق بالتضاد ، لأنّ المذكور فى لفظيه ليس هو المقابل للآخر حقيقة ، و قد استفاد الخطيب فى كل ما ذكره ممن سبقه من العلماء .

جهود المعاصرين

فى الدراسات البلاغية

"جهود المعاصرين فى الدراسات البلاغية"(1)

برز فى العصر الحديث عدد من العلماء و الكتاب الذين دافعوا عن البلاغة العربية ودعوا إلى ضرورة تخليص البلاغة مما أصابها من جمود ،

➢ **وكان لهؤلاء كتبا تدرس منها :**

(أ) كتاب دفاع عن البلاغة للأستاذ: أحمد حسن الزيات – الذى يعد صيحة قوية ضد الذين تآمروا على اللغة الفصحى و فصاحتها ، و قد تناول فى هذا الكتاب عدة موضوعات . فبدأ بالحديث عن آلة البلاغة لدى الأديب ، وجعلها فى الطبع الموهوب والعلم المكتسب ، وطالب بدراسة اللغة والطبيعة والنفس ، وأرجع الطبع إلى الذهن الثاقب والخيال الخصب و العاطفة القوية والأذن الموسيقية .

و بين أن الأسلوب الأدبى هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، وهذه الطريقة تختلف من أديب لأديب بل تختلف عند الأديب الواحد عندما يتناول فنين مختلفين كالقصة والمقالة مثلاً .

ومن سمات الأسلوب : أن الفكر والصور فيه كُلّ لا يتجزأ وإذا تغيرت الفكرة تغيرت الصورة ، والأسلوب الممتاز هو الذى يتصف

---

(1) راجع تطوير البحث البلاغى ص ٣٧ وما بعدها . د : محمد رجب البيومى .

بالأصالة والوجازة و التلاؤم ، ويجب على الأديب أن لا يستخدم لفظاً عامياً وتعبيراً محفوظاً ، ولا استعارة مشاعة .

وللأصالة خصوصيتان : خصوصية اللفظ من حيث دلالته على المعنى المراد ، ووقوعه فى الموقع الملائم ، فالكلمة تعد ميتة ما دامت فى المعجم ، فإذا وضعها الفنان فى موضعها الطبيعى من التركيب دبت فيها الحياة .

والخصوصية الثانية : تكون فى طرافة العبارة وتعتمد على الابتكار فى حكاية الخبر و تصوير الفكر .

ويتحدث عن الإيجاز فيذكر أنه حدّ البلاغة ، وإذا كانت الوجازة أصلاً فى بلاغات اللغات فإنها فى بلاغة العربية أصل وروح وطبع ، ويذكر أن التفصيل (يعنى الاطناب) إذا أسلم من اللغو كان كالإجمال إذ برئ من الإخلال وكلاهما حسن فى موضعه بليغ فى بابه .

وفى توضيحه لمعنى التلاؤم الموسيقى أشار صاحب كتاب دفاع عن البلاغة إلى حديث القدماء عن فصاحة المفرد وفصاحة الجملة ، والأولى تتحقق بائتلاف الحروف ، وتوافق الأصوات ، وحلاوة الجرس ، والثانية تتحقق بتناسب الفقر ، وتناسق النظم ، وحسن الإيقاع ، ومدار ذلك كله على الذوق الفنى السليم والأذن الموسيقية المرهفة .

و يتحدث الزيات عن الذوق البلاغي فيذكر أن له مصدرين :

١. العقل المتزن : وهو يحكم فى التناسب والقصد والترتيب .

٢. العاطفة : وهى الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس ، وكلما اقترب الفنان من الطبيعة كان أجمل وأصدق ، وقد مثل لذلك من روائع الأدب فى الحديث و القديم فى مواضع متفرقة من كتابه ، ويرد على من ينكرون تجميل الأسلوب وأصحاب الحملات على "الأسلوب البليغ" فيقول : كيف نعلل لدى هؤلاء إنكارهم تجميل الأسلوب وهم لا يفتأون -كسائر الناس- يطلبون الجمال فى شتى ضروبه ومختلف صوره . كما يثورون على تنسيق الكلام بدعوى أن الغرض منه الفهم والعلم ، ولا يثورون على تزيين الطعام ، و تحلية الهندام ، وتزويق السكن ، والغرض الأصيل منها الغذاء والوقاء ؟ و كيف لا يقفون موقف الحيوان عند حد الضرورة من مآرب العيش و مطالب الجسد ، فلا يتفننوا فى تلاؤم الأجزاء فى اللباس المهندم ،

ولا يتأنقوا فى تنضيد الألوان على الخوان الموشّى ولا ينافسوا فى تنجيد الأثاث للبيت المزخرف ؟ وإذا كان أحدهم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع ... ولا أن يتزوج المرأة الكسيحة فماذا يكره أن يسمع – الكلمات العذبة، والفقر المتسقة ، والجمل

الموزونة ، والأصوات المؤتلفة ، والنظر والسمع فى هذا المقـام سواء " .

(ب) كتاب الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب :

هذا الكتاب محاولة جادة لوصل البلاغــة القديمــة بالدراسـات الحديثة ، لأن الدراسات القديمة فى رأيه لا تستوعب أصول البلاغــة كما ينبغى أن تكون لتساير الأدب الإنشائى فـى أسـاليبه و فنونـه ، ويرى أنه لا بد من تخطيط جديد للبلاغة العربية فتكون فـى بـابين :

الباب الأول : عن الأسلوب فيتناول دراسة الحــروف و الكلمـات و الصور و العبارات على أن تدرس درساً منفصلاً يعتمد علـى علـوم الصوت و النَّفس الموسيقى ، وفى هذا الباب يمكـن أن تدخـل كـل موضوعات البلاغة لتكون فصولا فى باب الأسلوب .

أما الباب الثانى : فيدرس الفنون الأدبية و قوانينها شعراً و نـثراً يدرس أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدول والوصف والرثـاء والقصة والملحمة والتمثيلية والتاريخ إلى غير ذلك من الفنون الأدبيـة التى ذخرت بها الآداب العالمية ،وشرعت قواعدها ، ولـم تحـظ فـى البلاغة النظرية إلا بإشارات خاطفة لا تغنى شيئاً ، وبعد ما ذكر ذلـك فى المقدمة قام بتطبيق ذلك فى فصول الكتاب .

وقد عرّف الزيات البلاغة تعريفاً عصرياً ، ودعا إلـــى الانتفـــاع بثمار علم النفس ، وتحدث عن البلاغة علماً وفناً ووضّـــح علاقتـــها بالفنون الجميلة وبين موضوع علم البلاغة .

وفى الفصل الثانى تحدث عن الأسـلوب و أنواعــه و عنــاصر الأسلوب الأدبى ، وفى الفصل الثالث تحدث عن الفرق بين الأسـلوبين العلمى والأدبى ، وأثر الانفعالات النفسية فى الفنون الشــعرية ، ثــم تحدث عن النثر العلمى ، وبيَّن خصائص أسـلوب كــل مــن المقالــة والتاريخ والمناظرة والجدل ، كما تحدث عن النثر الأدبى ، وما ينطوى تحته من وصف ورواية ومقالة ورسالة وخطابة ، كما تحدث بعد ذلــك عن الأسلوب وصلته بالشخصية ، ودلالة الأسلوب على الشخصية فــى اختلاف الأساليب مع ذكر الشواهد فى كل ذلك .

ويتكلم فى الباب الأخير عن تحديد صفات الأسلوب ، وما يتبــع ذلك من الكلام على وضوح العبارة ، و القوة ، و عناصر الجمال .

وقد تضمن الكتاب بعض الآراء حول أعـــلام الأدب و السياســة المعاصرين مثل أحمد أمين ، وطه حســين ، والمــازنى ، وهيكــل ، وغيرهم .

كما ذكر موازنات بين الكتاب ، والخطباء كالجاحظ ، وابن خلدون ، وأما كتاب فن القول للأستاذ أمين الخولى فقد دعا فيه إلى دراسة فن القول ، دراسة ذات ميزة ، وهى : ارتباط فن القول بعلوم الفلسفة و الجمال .

والآن مع عرض نموذج يحتذى به فى كيفية كتابة البحث البلاغى ، من خلال إحدى كتب التراث العربى ألا وهو كتاب الصاحبى فى فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب فى كلامها للعلامة الإمام :أبى الحسين احمد بن فارس بن ذكريا الرازى اللغوى .

فيما تضمنه الصاحبى من علم البيان

كلام ابن فارس عن التشبيه :

تكلم ابن فارس عن التشبيه وبعض أدواته ومثل لذلك ، كما تكلم عن تقييد التشبيه بالوصف واطلاقه من التقييد ، وذلك أنه فى باب أجناس الأسماء يذكر أن أسماء الأعيان اسم مشبه — بضم الميم — كقولنا : رجل حديد وأسد ، على وجه التشبيه (١) .

كما يتكلم عن « الكاف » فيقول : انها تدخل فى أول الاسم للتشبيه فتخفض الاسم نحو : زيد كالأسد ، وأهل العربية يقيمونها مقام الاسم ويجعلون لها محلا من الاعراب ولذلك يقولون : مررت بكالأسد ، أرادا بمثل الأسد (٢) .

وتحدث أيضا عن « كأن » وقال : انها كلمة تشبيه (٣) .

ويتحدث عن الاطلاق والتقييد فيقول : أما الاطلاق فأن يذكر الشىء باسمه لا يقرن به صفة ولا شرط ولا زمان ولا عدد ولا شىء يشبه ذلك .

والتقييد : أن يذكر بقرين من بعض ما ذكرناه فيكون ذلك القرين زائدا فى المعنى ، من ذلك أن يقول القائل : زيد ليث ، فهذا انما شبهه

---

(١) الصاحبى ٥٥ .
(٢) نفس المرجع ٨٢ وأنظر مغنى اللبيب ١٥١/١ .
(٣) الصاحبى ١٣٢ .

بالليث فى شجاعته ، فاذا قال : هو كالليث الحرب ، فقد زاد «الحرب» وهو الغضبان الذى حرب فريسته أى سلبها ، فاذا كان كذلك كان أدهى له ، ومن المطلق قوله «ترائبها مصقولة كالسجنجل » .

فشبه صدرها بالمرآة لم يزد على هذا.

وذكر ذو الرمة أخرى فزاد فى المعنى حتى قيد فقال :

« ووجه كمرآة الغريبة أسجح »

فذكر المرآة كما ذكر امرؤ القيس السجنجل ، وزاد الثانى ذكر « الغريبة » فزاد فى المعنى ، وذلك أن الغريبة ليس لها من يعلمها محاسنها من مساوئها فهى تحتاج أن تكون مرآتها أصفى وأنقى لتريها ما تحتاج الى رؤيته من سنن وجهها (٤) ، ومنه قول الأعشى :

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى تفهق

فشبه الجفنة بالجابية وهى الحوض ، وقيدها بذكر الشيخ العراقى ، لأن العراقى اذا كان بالبدو لم يعرف مواضع الماء ومواقع الغيث فهو على جمع الماء الكثير أحرص من البدوى العارف بالمناقع والأحساء ، (٤) .

---

(٤) المرجع نفسه ١٦٥ ، وواضح مما ذكره أنه لم يقف عند ذكر الشاهد فقط وانما يعقد مثل هذه الموازنات التى تبرز بوضوح تعمقه فى دراسة الأساليب وتذوقها وأنه لم يقف عند مجرد ذكر المعانى اللغوية، وهذا وأضرابه يوضح جهد ابن فارس وماله من باع واسع فى المساهمة فى الدراسات البلاغية خلافا لمن اتهمه بالتقصير فى هذا المجال .

(٤) الصاحبى ١٦٥ .

كلام ابن فارس عن الحقيقة والمجاز :

يتكلم عن معنى الحقيقة فى اللغة فيقول : انها من قولنا حق الشىء اذا وجب واشتقاقه من الشىء المحقق وهو المحكم ، تقول : ثوب محقق النسج أى محكمه ، وهذا جنس من الكلام يصدق بعضه بعضا من قولنا حق وحقيقة ثم يعرفها تعريفا يختلف كثيرا عما ذكره البلاغيون (٥) فيما بعد فيقول :

فالحقيقة : الكلام الموضوع موضعه الذى ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخيرا (٦) ، كقول القائل : أحمد الله على نعمه وإحسانه وهذا أكثر الكلام ، قال الله جل ثناؤه « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » (٧) واكثر ما يأتى من الآى على هذا ، ومثله فى شعر العرب :

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعف من القنوع

ثم يعرف المجاز فيقول : وأما المجاز فمأخوذ من جاز يجوز اذا استن ماضيا تقول : جاز بنا فلان ، وجاز علينا فارس ، هذا هو الأصل ثم تقول : يجوز أن تفعل كذا أى ينفذ ولا يرد ولا يمنع ، وتقول : عندنا دراهم وضح وازنة وأخرى تجوز جواز الوازنة ، أى ان هذه وان لم تكن وازنة فهى تجوز مجازها وجوازها لقربها منها ، فهذا تأويل قولنا مجاز (٨) .

---

(٥) انظر الايضاح ٢/٢٦٥ ، ٢٦٦ ، وشروح التلخيص ٤/٢ ومابعدها

(٦) يفهم من التعريف أنه يدخل التقديم والتأخير ضمن المجاز .

(٧) البقرة : ٤ .

(٨) الملاحظ أنه اقتصر فى تعريف المجاز على معناه اللغوى ، هو المضى

=

أى أن الكلام الحقيقى يمضى لسننه لا يعترض عليه ، وقد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه الا أن فيه من تشبيه (٩) واستعارة وكف ما ليس فى الأول .

وذلك كقولك : عطاء فلان مزن واكف ، فهذا واكف ، فهذا تشبيه ، وقد جاز مجاز قوله عطاء كثير واف .

ومن هذا فى كتاب الله جل سناؤه « سنسمه على الخرطوم »(١٠). فهذا استعارة ، وقال « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » (١١).

فهذا تشبيه ، ومنه قول الشاعر :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

=

والجواز ولم يتعرض لتعريفه اصطلاحا كما فعل فى تعريف الحقيقة ، ولعله اكتفى بتعريفها عن تعريف المجاز لأنه عكسها ، والمعروف أن هناك خلافا بين البلاغيين فى اشتقاق كلمة المجاز انظر الايضاح ٢٦٩/٢ ، وأسرار البلاغة ٣١٦ ، والمطول ٣٥٢ .

(٩) لعله يقصد التشبيه المحذوف الوجه والأداة لأنه عند جماعة من الاستعارة الداخلة فى المجاز أو أنه يدخله فى المجاز حيث قاسه على مثال من الحقيقة .

(١٠) القلم ١٦ ، والآية اما مجاز مرسل أو استعارة، يقول الزمخشرى عبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الاذلال والاهانة ، وفى لفظ الخرطوم استخفاف به ، وقيل معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها على سائر الكفرة كما عادى الرسول عداوة بان بها عنهم ، الكشاف ١٤٣/٤ .

(١١) الرحمن ٢٤ .

فجبر هنا عن ذكر السورة وانما هي من البناء ، ثم قال يتذبذب والتذبذب يكون تذباذب الثوب وهو ما يتدلى هته فيضطرب ، ثم شبهه بالشمس وشبههم بالكواكب .

وجاء هذان البابان في نظوم كتاب الله جل ثناؤه ، وكذلك ما يجيء بعدهما مما نذكر من سنن العرب لتكون حجة الله جل اسمه عليهم آكد (١٢) ولئلا يقولوا انما عجزنا عن الاتيان بمثله لأنه بغير لغتنا وبغير السنن التى نستنها .

فمن سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ معناه كقولهم عند المدح : قاتله الله ما أشعره ؟ فهم يقولون هذا ولا يقصدون وقوعه (١٣) .ومنه امرىء القيس يصف راميا :

فهو لا تنمى رميته ... ماله لاعد من نفره

يقول : اذا عد نفره لم يعد معهم كأنه قال : قتله الله ، أماته الله حتى لا يعد ، ومنه قولهم : هوت أمه وثكلته ، قال كعب بن سعد يرثى أخاه :

هوت أمه مايبعث الصبح غاديا ... وماذا يؤدى الليل حين يؤب؟

وهذا يكون عند التعجب من اصابة الرجل في رميه أو فى فعل يفعله .

---

(١٢) يتحدث هنا عن جانب من جوانب اعجاز القرآن الكريم وهو نزوله على سنن لغة العرب ومخاطباتهم .

(١٣) وهذا على سبيل استعارة الشىء لضده ويذكر الزمخشرى أن هذا أشعار بانه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك ، الكشاف ١٨٣/٤ والتفسير الكبير ٢٥١/٨ .

ثم ينقد ابن قتيبة فيما ذهب اليه من جعله أمثال ذلك فى كتاب الله غير مراد وقوعه كما هنا فيقول :

وكان ابن قتيبة (١٤) يقول فى هذا الباب : من ذلك الدعـاء على جهة الذم لا يراد به الوقوع كقول الله جل ثناؤه « قتل الخراصون »(١٥) ـ قتل الانسان ما أكفره (١٦) ـ « قاتلهم الله أنى يؤفكون » (١٧) وأشباه ذلك •

قال احمد بن فارس : وهذا وان أشبه ما تقدم ذكره فانه لا يجوز لأحد أن يطلق فيما ذكره الله جل ثناؤه أنه دعاء لا يراد به الوقوع ، بل هو دعاء عليهم أراد الله وقوعه بهم فكان كما أراد ، لأنهم قتلوا واهلكوا وقوتلوا ولعنوا •

وما كان الله ليدعو على أحد فتحيد الدعوة عنه ، قال الله « تبت يدا أبى لهب » فدعا عليه ثم قال « وتب » أى وقد تب وحاق به التباب ، وابن قتيبة يطلق اطلاقات منكرة ، ويروى أشياء شـنعة كالذى رواه عن الشعبى : أن أبا بكر وعمرو عليا لم يجمعوا القرآن ، قال : وروى

---

(١٤) تأويل مشكل القرآن ٢٧٥ •

(١٥) الذاريات ١٠ ، والخراصـون : الذين يلقون القـول عن ظن وتخمين دون علم تشبيها بفعل الخارص الذى يحزر ما على النخل من الرطب تمرا ، انظر الشاف ١٥/٤ •

(١٦) عبس ١٧ ، وهو دعاء من أشـنع دعواتهم لأن القتل تصـارى شدائد الدنيا ، يقول الزمخشرى لا ترى أسلوبا أغلظ منه ولا أخشن مسا ولا أدل على سخط ولا أبعد ذما مع تقـارب طرفيه ولا أجمع للأمة على تصر متنه » الشاف ٢١٩/٤ •

(١٧) التوبة ٣٠ •

شريك عن اسماعيل بن أبى خالد قال سمعت الشعبى يقول ويحلف بالله لقد دخل على حفرته وما حفظ القرآن •

وهذا كلام شنيع جدا فيمن يقول : سلونى فما من آية الا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم بسهل أم فى جبل (١٨) ؟•

ما ورد فى الصاحبى من أمثلة المجاز المرسل :

فى باب الأسماء التى تسمى بها الأشخاص على المجاورة ذكر ابن فارس عددا لا بأس به من علاقات المجاز المرسل ومثل لكل علاقة بمثال من القرآن أو غيره ، بل ذكر أمثلة وقع فيها المجاز بمرتبتين ، وما مثل به هنا هو فى الغالب ما مثل به كثير من البلاغيين لهذا النوع من المجاز فيما بعد •

يقول ابن فارس : قال علماؤنا العرب تسمى الشىء باسم الشىء اذا كان مجاورا له أو كان منه بسبب وذلك قولهم : التيمم لمسح الوجه من الصعيد — وانما التيمم الطلب والقصد ، يقال تيممتك وتأممتك أى تعمدتك (١٩) •

ومن ذلك تسميتهم السحاب ماء (٢٠) — والمطر سماء (٢١) • وتجاوزوا ذلك الى أن سموا النبت سماء ، قال شاعرهم :



(١٨) الصاحبى ١٧٠ ، وهو محق فى رده على ابن قتيبة فيما ذهب اليه من نسبة عدم جمع القرآن الى أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم •

(١٩) أصل التيمم التعمد والتوخى ، قال ابن السكيت : قوله تعالى (فتيمموا صعيدا طيبا) أى أقصدوا الصعيد طيب ثم كثر استعمالهم لهذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب ، الصحاح ٥/٢٠٦٤ م

(٢٠) لأن الماء مسبب عن السحاب •

(٢١) وذلك بعلاقة المجاورة •

« اذا نزل السماء بأرض قوم » (٢٢)

وربما سموا الشحم ندى لأن الشحم عن النبت والنبت عن الندى (٢٣) ، قال ابن أحمر :

كثور العداب الفرد يضربه الندى
تعلى الندى الشحم في متنه وتحدرا (٢٤)

ومن ذلك قول القائل : قد جعلته نفسى فى أديم ، أراد بالنفس الماء وذلك أن قوام النفس بالماء (٢٥)

وذكر ناسى أن من هذا الباب قوله جل ثناؤه « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » (٢٦) يعنى خلق ، وانما جاز أن يقول أنزل لأن الأنعام لا تقوم الا بالنبات والنبات لا يقوم الا بالماء ، والله جل ثناؤه ينزل الماء من السماء ، قال : ومثله « قد أنزلنا عليكم لباسا » (٢٧) وهو جل ثناؤه أنما أنزل الماء لكن اللباس من القطن والقطن لا يكون الا بالماء .

---

(٢٢) وذلك أنهم أسموا المطر سماء على المجاورة . ثم سموا النبت سماء لأن النبت مسبب عن المطر المسمى سماء فالمجاز بمرتبتين .

(٢٣) فهو مجاز بمرتبتين .

(٢٤) وهو نظير قول بعضهم :

أقبل في المستن من ربابه ... اسنمه الأبال فى سحابه

(٢٥) وهو من اطلاق المسبب عن السبب أو من علاقة اللزوم .

(٢٦) الآية ٦ من سورة الزمر ، وانظر الايضاح ٢٧٣/٢ ، وشروح التخليص ٣٩/٤ وحاشية الشهاب ٤٣/٥ .

(٢٧) الأعراف ٢٦ قال أبو حيان : قيل الانزال على حقيقته فأنزل مع آدم وحواء شيئا من اللباس ، أو أنزل من السماء أصل كل شيء ، أو انزل معه الحديد فاتخذ منه آلات الصنائع ، أو أنزل الملك فعلم آدم النسج ، وقيل
=

قال : ومنه قوله جل ثناؤه « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا » (٢٨) انما أراد والله أعلم الشىء ينكح به من مهر ونفقة ولابد للمتزوج به منه (٢٩) .

وفى باب الزيادة :

ذكر ابن فارس آيتين أحداهما من قبيل المجاز والأخرى من قبيل الكناية على أنهما مما وقع فيهما زيادة الأسماء ، والمعروف أن الزيادة فى القرآن تسمى صلة (٣٠)

=

(لانزال مجاز من اطلاق السبب عن مسببه فانزل المطر وهو سبب ما يتهيأ منه اللباس ، أو بمعنى خلق ، أو الهم ، وقال الشهاب التجوز اما فى الاسناد أو فى المسند أو فى اللباس،البحر المحيط ٤/٢٨٢ وحاشية الشهاب ٤/١٦١

(٢٨) النور ٣٣ ، قال الزمخشرى (نكاحا) أى استطاعة تزوج ، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال ، وعلى هذا يكون من اطلاق المسبب وارادة السبب ، الكشاف ٣/٦٥ .

(٢٩) الصاحبى ٦٣ ، ٦٤ والجدير بالذكر أن الثعالبى قد نقل هذا الباب عن ابن فارس ومثل له ببعض الأمثلة التى ذكرها ابن فارس . انظر فقه اللغة ص ٤٨٤ .

(٣٠) يقول الزركشى:الأكثرون ينكرون اطلاق كلمة الزيادة فى كتاب الله ويسمونه التأكيد ، ومنهم من يسميه بالصلة ومنهم من يسميه المقحم ، وقال ابن جنى : كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام اعادة الجملة مرة أخرى :

والأولى أن نجنب كلام الله من مثل الحشو واللغو لأن مراد النحويين بالزائد من جهة الاعراب لا من جهة المعنى ، ومن العلماء من ينكر وقوع الزائد فى القرآن كالمبرد وثعلب وقال الطرطوس : الدهماء من العلماء

=

أما الآية الأولى فقوله تعالى « ويبقى وجه ربك » (٣١) والآية

=

والفقهاء والمفسرين على اثبات الصلات فى القرآن وقد وجد ذلك على وجه لا يسع انكاره ، وعند ابن السراج انه ليس فى كلام العرب زائد لأنه تكلم بغير فائدة ، ومنهم من جعل وجوده كالعدم وهو افسد الطرق ·

وفى موضوع آخر يتكلم الزركشى عن وجوب تجنب اطلاق الزائد على بعض الحروف الواردة فى القرآن فيقول نقلا عن أبى نصر القشيرى : وكثيرا ما يقع فى كلامهم اطلاق الزائد على بعض الحروف كـ « ما » فى نحو «فبما رحمة من الله » والكاف فى نحو « ليس كمثله شىء » ونحوه ·

ثم يقول : والذى عليه المحققون تجنب هذا اللفظ فى القرآن اذ الزائد ما لا معنى له، وكلام الله منزه عن ذلك ، وممن نص على منع ذلك فى المتقدمين الامام داود الظاهرى لقوله ليس فى القرآن صلة يوجه البرهان ٣/٧١ ، ٢/١٧٨ ·

(٣١) الرحمن ٢٧ : المفهوم من كلام الزمخشرى وبعض العلماء أن الوجه هنا من قبيل المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ، حيث يقول : المراد ذاته، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، وقد جعل الزركشى هذا مرة من قبيل المجاز المرسل ومرة من مجاز الزيادة نقلا عن الواحدى فى قوله : عن أكثر المفسرين أن الوجه صلة وقد ورد مع اسم الله كثيرا كقوله « ويبقى وجه ربك » أى ويبقى ربك ، وهذا موافق لابن فارس ·

كما ذكر أن ابن عطية نقل الحذاق أن الوجه راجع الى الوجود والعبارة عنه بالوجه مجاز ، وقيل ، وهو الصواب — هى صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات الله تعالى ، وضعفه إمام الحرمين ·

انظر حاشية الشهاب ٧/٩٠ ، والبرهان ٢/٢٧٨ ، ٣/٣٦٤ ، والكشاف ٤/٤٦ ·

الثانية قوله تعالى « وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله » (٣٢) أي عليه (٣٣)

ومما ذكره من أمثلة المجاز المرسل كذلك ما جاء في باب اقتصارهم على ذكر بعض الشيء وهم يريدونه كله ، يقولون : قعد على صدر راحلته .

ومضى ، ومن الباب « ويحذركم الله نفسه » (٣٤) ، وذكروا في

---

(٣٢) الاحقاف ١٠ ، وذكر الشهاب أن هذا كناية بمعنى أنه ان كان تشهد على مثله فشهادته عليه من باب أولى ، وما ذكره الرازي يدل على عدم الحذف هنا لقوله : ذكروا في قوله « على مثله » وجوها ، والأقرب أن نقول أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم أرأيتم ان كان هذا القرآن من عند الله كما أقول وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثل ما قلت فآمن واستكبر ثم ألستم كنتم ظالمين أنفسكم ، التفسير الكبير ٧/٤٨١ وقال السيوطي : نص أكثر النحويين على أن الأسماء لا تزاد ، ووقع في كلام المفسرين الحكم عليها بالزيادة في مواضع كلفظ مثل في قوله « فان آمنوا بمثل ما آمنتم به » الاتقان ٣/٢٢١ .

(٣٣) الصاحبي ١٧٦ .

(٣٤) آل عمران ٢٨ ، ٣٠ ، وقال الرازي : في الآية قولان ، الأول أن فيه محذوفا والتقدير ويحذركم الله عقاب نفسه، وقال أبو مسلم ويحذركم الله نفسه أن تعصوه فتستحقوا عقابه ، والقول الثاني : أن النفس ههنا تعود الى اتخاذ الاولياء من الكفار ، أي ينهاكم الله عن نفس هذا العمل ، هذا وأراد ابن فارس أن المذكور هنا النفس والمراد الذات انظر التفسير الكبير ٢/٤٢٩ .

هذا الباب « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » (٣٥) وقال آخرون : (من) هذه للتبعيض لأنهم أمروا بالغض عما يحرم النظر اليه ، ومنه:

يوما بأجود نائلا منه اذا — نفس النجيل تجهمت سؤالها (٣٦)

ومنه « ويبقى وجه ربك » (٣٧) وتواضعت سور المدينة .

و « رأت مر السنين أخذن منى » (٣٨) وقولهم :

« صرف المنايا بالرجال تقلب » (٣٩) .

وفى باب العموم والخصوص

يذكر أمثلة ترجع الى المجاز المرسل فيقول :

---

(٣٥) النور ٣٠ ويقول الزمخشرى من للتبعيض ، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة وأباه سيبويه ، ودخلت فى غض البصر دون حفظ الفرج لأن أمر النظر أوسع ، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر الى شعورهم هذا والذى يقصده ابن فارس من ذكر هذه الآية أنه أمر بحفظ بعض البصر والمراد كله، وقال البيضاوى أى ما يكون نحو محرم ، وقال الشهاب : هو بيان لمعنى (من) التبعيضية ، فالمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجعل الغض عن بعض المبصر غضا عن بعض البصر ، وفى الكشف ان فيه كناية حسنة ليست فى حفظ الفروج ولذا لم يدخل فيه (من) فتأمل ، الكشاف ٣/٦٠ ، وحاشية الشهاب ٦/٣٧٢ .

الكشاف ٣/٦٠ ، وحاشية الشهاب ٦/٣٧٢ والبرهان ٢/٢٦٥ .

(٣٦) وقد أطلق النفس هنا والمراد ذات البخيل كله ، وفى اسناد التجهم الى نفس البخيل صالح كذلك للمجاز العقلى لأن المتجهم هو البخيل .

(٣٧) الرحمن ٢٧ ، وسبق الحديث عن المجاز فى هذه الآية .

(٣٨) أطلق مر السنين والمراد السنين كلها ، كما أن فى اسناد الأخذ الى السنين مجازا عقليا .

(٣٩) وكذا اطلاق للصرف والمراد المنايا ، وفى اسناد التقلب لصرف المنايا كذلك مجازا عقليا . الصاحبى ٢١٣ .

وأما العام الذي يراد به الخاص (٤٠) فكقوله جل ثناؤه حكاية عن موسى عليه السلام « وأنا أول المؤمنين » (٤١) ولم يرد كل المؤمنين لأن الأنبياء قبله كانوا مؤمنين ، ومثله كثير ، ومنه « قالت الأعراب آمنا » (٤٢) وانما قاله فريق منهم ، و « الذين قال لهم الناس » (٤٣) انما قاله نعيم بن مسعود « ان الناس » أبو سفيان وعيينة بن حصن ، ومنه قوله جل ثناؤه « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون » (٤٤) أراد الآيات التي اذا كذب بها نزل

---

(٤٠) هذه العلاقة مما ذكرها بعض البلاغيين وقد أدخلها السبكي في اطلاق الكل على الجزء كما أنه جعل عكسها من اطلاق الجزء على الكل ، عروس الأفراح ٤/٤٣ .

(٤١) الأعراف ١٤٣ وبذلك قال الزركشي ، وقد ذكر الزمخشري وجوها أخرى منها أول المؤمنين بأنك لست بمرئي ولا مدرك بشيء من الحواس ومنها : أول المؤمنين بعظمتك وجلالك وأن شيئا لا يقوم لبطشك وبأسك ، البرهان ٢/٢٧٢ ، والكشاف ٢/١١٦ .

(٤٢) الحجرات ١٤ وهي عند الزركشي كما ذكر ابن فارس ، البرهان ٢/٢٧٣ .

(٤٣) آل عمران ١٧٣ ، وقال الزمخشري : فان قلت كيف قيل الناس ان كان نعيم هو المثبط وحده ؟ قلت : قيل ذلك لأنه من جنس الناس ، أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس أهل المدينة يضامونه ويصلون جناح كلامه ويثبطون مثل تثبيطه ، الكشاف ١/٤٨٠ ، والبرهان ٢/٢٧٣ وتأويل مشكل القرآن ٢٨٢ .

(٤٤) الاسراء ٥٩ ، قال الزمخشري : استعير المنع لترك ارسال الآيات وهو موافق لما ذكره ابن فارس لقوله : والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا وغير ذلك مما لو جاء ولم يؤمنوا به لكان عذاب الاستئصال ، الكشاف ٢/٤٥٤ .

العذاب على المكذبين ، وكذلك قوله « ويستغفرون لمن فى الأرض »(٤٥) أراد به من المؤمنين لقوله « ويستغفرون للذين آمنوا » (٤٦) .

وأما الخاص الذى يراد به العام فكقوله عز وجل « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » (٤٧) الخطاب له صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد الناس جميعا .

— ومن الأمور التى ذكرها ابن فارس ويمكن أن تدخل تحت المجاز المعبر عنه عند الزركشى والسيوطى باقامة صيغة مقام أخرى « الواحد يراد به الجمع » .

---

(٤٥) الشورى ٥ ، وما ذكره ابن فارس هو نفس ما ذكره الزركشى والسيوطى فى الآية وقد ذكر الزمخشرى هذا الوجه وأضاف وجها آخر وهو: يحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران فى قوله « ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » والمراد : الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون الاستغفار عاما .

الكشاف ٣/٤٦٠ وانظر البرهان ٢/٢٧٣ ، والاتقان ٣/١٢٤ .

(٤٦) غافر ٧ ، والصاحبى ١٧٩ .

(٤٧) الأحزاب ١ ، وبذلك قال الزركشى ، أما الزمخشرى فقد جعل الأمر بالتقوى مرادا به المداومة والمواظبة ، وذكر ذلك الرازى أيضا لكنها أضاف وجوها أخرى منها : أن الملك يتقى منه عباده على ثلاثة وجوه : بعضهم يخاف من عقابه ، وبعضهم يخاف من قطع ثوابه ، وثالث يخاف من احتجابه، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثانى فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور مع الله وعدم الانشغال عنه لحظة البرهان ٢/٢٧١ والكشاف ٣/٢٤٨ والتفسير الكبير ٦/٥٦٧ .

يقول ابن فارس :

ومن سنن العرب ذكر الواحد والمراد به الجميع كقولهم للجماعة ضيف وعدو ، قال الله جل ثناؤه « هؤلاء ضيفى » (٤٨) وقال « ثم يخرجكم طفلا » (٤٩) وقال « لا نفرق بين أحد منهم » (٥٠) والتفريق لا يكون الا بين أثنين ، ويقولون : قد كثر الدرهم والدينار (٥١) ، ويقولون :

« فقلنا أسلموا انا أخوكم » (٥٢) ويقولون « كلوا فى نصف بطنكم تعيشوا » (٥٣) و « أيها الانسان انك كادح » (٥٤) « يا أيها الانسان ما غرك بربك » (٥٥) .

---

(٤٨) الحجر ٦٨ ، وقد ذكر ابن قتيبة أن هذا من مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، تأويل مشكل القرآن ٢٨٤

(٤٩) الحج ٥ ، وذكرها ابن قتيبة كذلك من الواحد يراد به الجميع، وقال الزمخشرى : وحده للدلالة على الجنس ، ويحتمل نخرج كل واحد منكم طفلا ، الكشاف ٦/٣ ، والمرجع السابق .

(٥٠) البقرة ١٣٦ ، يقول الزمخشرى أيضا أحد فى معنى الجماعة لدخول بين عليه ، الكشاف ٣١٥/١ .

(٥١) وقد مثل بذلك وما بعده أيضا ابن قتيبة انظر مشكل القرآن ٢٨٤ .

(٥٢) شطر بيت للعباس بن مرداس ، اللسان ٢١/١٨ .

(٥٣) أفرد البطن والمراد كلوا فى بطونكم ، كتاب سيبويه ١٠٨/١ وخزانة الأدب ٣٧٩/٢ .

(٥٤) الانشقاق : ٦ .

(٥٥) الانفطار : ٦،وقد وردت الآيتان عند ابن قتيبة من خطاب الواحد الذى يراد به الجمع ، تاويل مشكل القرآن ٢٧٣ ، وانظر الصاحبى ١٨٠ .

ـ كما يتكلم ابن فارس عن عكس ما قدم فيقـــول : ومن سنن العرب الاتيان بلفظ الجميع والمراد واحد واثنان كقوله جل ثنـــاؤه « وليشهد عذابهما طائفة » (٥٦) يراد به واحد واثنان وما فوق ٠

وقال قتادة فى قوله جل ثناؤه « ان نعف عن طائفة منكم نعـــذب طائفة » (٥٧) كان رجلا من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم فى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ويسير مجانبا لهم فسماه الله طائفـــة وهو واحـــد (٥٨) ٠

ومنه « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات » (٥٨) كان رجـــل نادى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال يا محمد ان مدحى زين وان شتمى شين ، فقال رسول الله : ويلك ذاك الله جل ثناؤه ، وقال « فقد صغت قلوبكما » (٥٩) وهمـــا قلبان ، وقال « بم يرجـــع المرسلون » (٦٠) وهو واحد ، يدل عليه قوله « ارجع اليهم » ٠

---

(٥٦) النور ٢ وقد وافقـه ابن قتيبـة فيما ذكره فى الآية ، تأويل مشكل القرآن ٢٨٢ ٠

وقد ذكر الزمخشرى الآراء فى عـدد الطائفة وأن أقلها ثلاثة وقيـل أربعين ، الكشاف ٣/٤٨ ٠

(٥٧) التوبة ٦٦ وما ذكره ابن قتيبة فى الآية نص ما ذكره ابن فارس تأويل مشكل القرآن ٢٨٣ ٠

(٥٨) الحجرات ٤ ، والآية عند ابن قتيبة كذلك ، نفس المرجع ٠

(٥٩) التحريم : ٤ ، وهى بنصها عند ابن قتيبة كما ذكرها ابن فارس نفس المرجع ٠

(٦٠) النمل ٣٥ ، وهى عند ابن قتيبة كذلك لكن السيوطى يذكر أنه يحتمـــل أنه خاطب رئيسهم لاســـيما وعادة الملوك ألا يرسـلوا واحدا ، الاتقان ٣/١٣٠ ٠

كما يقول : والعرب تصف الجميع بصفة الواحد كقوله جل ثناؤه « ان كنتم جنبا فاطهروا » (٦٧) فقال جنبا وهم جماعة ، وكذلك « والملائكة بعد ذلك ظهير » (٦٢) ويقولون قوم عدل ورضا .

— وربما وصفوا الواحد بلفظ الجميع (٦٣) ، ويقولون برمة أعشار (٦٤) ، وثوب أهدام (٦٥) .

قـــال :

جاء الشتاء وقميص أخلاق (٦٦)

---

(٦١) المائدة : ٦، وهو متفق مع ابن قتيبة في المراد بالآية هنا ، تأويل مشكل القرآن ٢٨٥ .

(٦٢) التحريم : ٤ ، ونفس الآية مثل بها ابن قتيبة أيضا وكذا قولهم قوم عدل ، ولعل ابن فارس قد نقل الكثير من هذه الأمور عن ابن قتيبة دون أن يشير الى ذلك ، وقد لوحظ أن بعض الأمثلة التي مثل بها بن فارس وما ذكر بعدها من معان في هذا الباب موجودة بالنص عند ابن قتيبة ، انظر تأويل مشكل القرآن ٢٨٥ ، والصاحبي ١٨١ ، ١٨٢ .

(٦٣) ما ذكره هنا بعينه وأمثلته عند ابن قتيبة ، انظر تأويل مشكل القرآن ٢٨٦ .

(٦٤) يقال قدر أعشار ، قدور أعشار أي العظام التي تشعب لكبرها عشر قطع .

(٦٥) أصل الهدم للحائط ، وقد وصف به الثوب هنا على المجاز يقال : تهدم الثوب أي بلي وعليه هدم وأهدام أي أخلاق .

(٦٦) يقال اختلقت الثوب : لبسته حتى بلي ، وهو في كل ذلك تجوز في الوصف حيث أن الموصوف مفرد والوصف جمع .

ومن هذا (ما كان المشركين أن يعمروا مساجد الله) (١٦٧)،انما أراد المسجد الحرام .

ويقولون : أرض سبا سب يسمون كل بقعة منها سبسبا لاتساعها (٦٨) ، ومن الجمع الذى ميراد به الاثنان قولهم : امرأة ذات أوراك ومآكم (٦٩) .

ومما ذكره فى هذا المقام ويدخل فى المجاز باقامة صيغة مقام أخرى قوله : ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع ، فيقال للرجل العظيم انظروا فى أمرى ، وكان بعض أصحابنا يقول : انما

---

(٦٧) التوبة ١٧ وللعلماء فى جمع المساجد فى الآية أقوال بعضها من قبيل الحقيقة ، والبعض الآخر من قبيل المجاز أو الكناية ، ومن ذلك قولهم أن المسجد موضع السجود فكل بقعة من المسجد الحرام فهى مسجد ، ومنها أن المراد أنهم لا يعمروا شيئا من المساجد فضلا عن المسجد الحرام ، وقيل: المراد المسجد الحرام وانما جمع لأنه قبلة المساجد فعامره كعامر الجميع ويوضح الشهاب الوجهين الأخيرين وبيان نوع المجاز فيهما فيقول : قوله شيئا . من المساجد ، يعنى أنه جمع مضاف فيعم فى سياق النفى ويدخل فيه المسجد الحرام دخولا أولياء ، اذ نفى الجمع يدل على كل فرد فيلزم نفيه على الفرد المعين بطريق الكناية ، ومعنى كون المسجد الحرام امام المساجد أى كالامام للمساجد لتوجه محاربيها اليه توجه المقتدى لجهة امامه فيكون التعبير عنه بالجمع مجازا علاقته المشابهة ، حاشية الشهاب ٣١٠/٤ ، وانظر التفسير الكبير ٤٠٩/٤ ، والصاحبى ١٨١ .

(٦٨) كأنه استعير هنا لفظ الجمع للاتساع مما يدل على أن كل قطعة منها أرض بذاتها .

(٦٩) الآكمتان : اللحمتان الزئيرتان من العجز ، وانما جمعهما هما والوركان للدلالة على الضخامة فكأنه شبه الاثنان بالجمع .

يقال لأن الرجل العظيم يقول : (٧٠) نحن فعلنا ، فعلى هذا الابتداء خوطبوا في الجواب بمثل ألفاظهم .

قال الله جل ثناؤه « قال رب ارجعون » (٧١) .

— ومن اقامة صيغة مقام أخرى كذلك ما ذكره ابن فارس نقلا عن ابن قتيبة نسبة الفعل الى الشيئين وهو لأحدهما قوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان — ثم قال يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » (٧٢) وانما يخرجان من الملح لا العذب .

---

(٧٠) وهذا من قبيل تربية المهابة في نفس السامع ، والذي قال ذلك هو ابن قتيبة ونقله عنه ابن فارس ، تأويل مشكل القرآن ٢٩٣ ، والصاحبي ٢٨٢ .

(٧١) المؤمنون ٩٩ والآية عند ابن قتيبة كذلك من خطاب الواحد بلفظ الجميع ، وعند الشهاب من استعارة لفظ مكان آخر ، يقول الشهاب مبينا نوع المجاز هنا وعلاقته : والذي خطر لي أن هنا استعارة أخرى غير ما ذكر في المعاني ، ولكونها لا علاقة لها بالمعنى لم تذكر ، وهي استعارة لفظ مكان آخر لنكتة بقطع النظر عن معناه وهو كثير في الضمائر كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في كفى به حتى لزم انتقاله عن صفة الى صفة أخرى ، ومن لفظ الى آخر ، وما نحن فيه من هذا القبيل حاشية الشهاب ٢٤٦/٦ ، والاتقان ١٣٠/٣ وعند الرازي : أن المخاطب ملائكة قبض الأرواح وهم جمع ، أو المراد بالخطاب الله تعالى وذكر بلفظ الجمع للتعظيم ، التفسير الكبير ٢٠٧/٦ .

(٧٢) الرحمن ٢٢ والمراد عند الزمخشري أحد الأمرين انه لما التقيا وصار كالشيء الواحد جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما قال : يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ، ولكن من بعضه ، وتقول : خرجت من =

ثم يقول : وينسبون الفعل الى الجماعة وهو واحد منهم قال الله « واذا قتلتم نفسا » (٧٣) وانما كان القاتل واحدا .

كما ينسب الفعل الى أحد اثنين وهو لهما (٧٤) ، قال الله جل ثناؤه « واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها » (٧٥) وانما انفضوا اليهما وقال « والله ورسوله أحق أن يرضوه » (٧٦) وقال « واستعينوا

=

البلد وانما خرجت من دار واحدة من دوره . وعلى هذا فيكون من قبيل المجاز المرسل باطلاق الكل على الجزء . وقيل : لا يخرجان الا من ملتقى الملح والعذب ، الكشاف ٤/٤٥ ، وانظر تأويل مشكل القرآن ٢٨٧ والاتقان ٣/١٣٠ .

(٧٣) البقرة ٧٢ ، يقول الشهاب : ان هذا مجاز حيث أسند الى الكل ما صدر عن البعض كما صرح به الزمخشري في سورة مريم ، حاشية الشهاب ٢/١٨٣ ، والكشاف ٢/٥١٧ ، والاتقان ٣/١٣١ .

(٧٤) وهذا اللون أيضا نقله أحمد بن فارس مع أمثلته من ابن قتيبة انظر تأويل مشكل القرآن ٢٨٨ .

(٧٥) الجمعة ١١ والآية عند الزمخشري من قبيل الحذف حيث يقول تقديره : اذا رأوا تجارة انفضوا اليها أو لهوا انفضوا اليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، لكشاف ٤/١٠٦ .

(٧٦) التوبة ٦٢ ، وقد استشهد البلاغيون بالآية الكريمة على حذف المسند احترازا عن العبث ، كما جوزوا فيها وجها آخر وهو أن لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله فكانا في حكم مرضي واحد ، ويقول السيد عن هذا الوجه : وفيه اعتبار لطيف هو التنويه برفعة شأنه وعلو مكانه صلى الله عليه وسلم ، المصباح ١/٢٠٩ ، والكشاف ٢/١٩٩ والايضاح ١/٨١ .

بالصبر والصلاة وانها لكبيرة » (٧٧) ثم قال الشاعر :

ان شرخ الشباب والشعر الأســود
ما لم يعــاص كان جنـــونا (٧٨)

ان شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا (٧٨)
وقال آخر :

نحن بما عندنا وأنت بما عنــــدك راض والرأى مختلف (٧٩)

— ومما ذكره أيضا أمر الواحد بلفظ أمر الاثنــين (٨٠) حيث تقول العرب افعلا ذاك ويكون المخاطب واحدا ، أنشد الفراء :

فقلت لصـــاحبى لا تحبســـانا
بنزع أصوله واجد زشيحا (٨١)

---

(٧٧) البقرة : ٤٥ وذكر الرازى : أن الضمير عائد الى الصلاة ، أو الى الاستعانة المفهومة من قوله واستعينوا ، أو عائد الى جميع الأمور التى أمر بها بنو اسرائيل ، والعرب قد تضمر الشيء اختصارا أو تقتصر فيه على الايماء اذا وثقت بعلم المخاطب ، التفسير الكبير ١/٣٢٨ .

(٧٨) البيت لحسان بن ثابت ، وقا ابن الشجرى : قال ما لم يعاص ، فافرد الضمير وذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة الآخر فجريا مجرى الواحد ، ألا ترى أن شرخ الشباب هو اسوداد الشعر ؟ ، انظر تأويل مشكل القرآن ٢٨٨ .

(٧٩) هذا البيت شاهد على حذف المسند للاختصار والاحتراز عن العبث فى الظاهر مع ضيق المقام ، الايضاح ١/٨١ ، والمصباح ١/٢٠٩

(٨٠) وهذا أيضـا مأخوذ بأمثلتـه من تأويل مشـكل القرآن ٢٩١ والصاحبى ١٨٦ .

(٨١) البيت منسوب لمضرس الأسدى أو ابن الطثرية،وأراد بالصاحب =

وقال الله جل ثناؤه « ألقيا في جهنم » (٨٢) وهو خطاب لخـزنة النار أو الزبانية .

كما يذكر في باب معاني أبنية الأفعال خروج بعض الصيغ عن أصلها حيث يقول : وفاعل يكون من اثنين نحو ضارب ، ويكون بمعنى فعل نحو « قاتلهم الله » (٨٣) وتفاعل يكون من اثنين نحو تخاصما ، ويكون من واحد نحو تراءى له ، ويكون اظهارا لغير ما هو عليـــه نحو متغافل ، أي أظهر غفلة وليس بغافل .

= من يحتطب له وخاطبه بلفظ الاثنين ، والمعنى لا تحبسنا عن شي اللحم بأن تقطع أصول الحطب وعروقه ولكن اكتف بقطع الشيح لأنه أسهل ، انظر تأويل مشكل القرآن ص ٢٩١ .

(٨٢) ق ٢٤ ، وقد ذكرها السيوطي تحت المجاز باقامة صيغة مقام أخرى وذلك باطلاق المثنى على المفرد ، وعند الزمخشري أن الخطاب قد يكون على حقيقته لقوله : الخطاب في (ألقيا) من الله تعالى للملكين السابقين ـ السائق والشهيد ـ ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين : أحدهما قول المبرد ان تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل : الق ألق للتـــأكيد ، والثاني أن العرب أكثر ما يرافق الرجـل منهم اثنان فكثر على ألسنتهم أن يقولوا صاحبي ، وقفا حتى خاطبوا الواحد خطـاب الاثنين ، وقرأ الحسن « ألقين » بالنون الخفيفة ، الكشــاف ٨/٤ والاتقان ١٢٩/٣ .

(٨٣) التوبة ٣٠ وردت هذه الآية عند ابن قتيبة في باب مخالفة اللفظ ظاهر معناه عن طريق الدعاء على جهة الذم لا يراد به الوقوع وقـــد انتقده في ذلك ابن فارس كما سبق ، ولم يتعرض ابن قتيبة لمعنى المفاعلة هنا وقد جعلها الزمخشري والرازي من باب التعجب ، تأويل مشكل القرآن ٢٨٥ والكشاف ١٨٥/٢ ، والتفسير الكبير ٤٢٤/٤ والصاحبي ١٨٩ .

وقوع المجاز فى الأعداد :

يذكر ابن فارس أن « الرتب فى الأعداد ثلاث : رتبة الواحد ، ورتبة الاثنين ، ورتبة الجماعة ، فهى للتوحيد والتثنية والجمع ، لا يزاحم فى الحقيقة بعضها بعضا » .

فان عبر عن واحد بلفظ جماعة وعن اثنين بلفظ جماعة فذلك كله مجـــاز .

وقول القائل : ان أقل ذلك أن يجمع واحد الى واحد ، فهذا مجاز ، وانما الحقيقة أن يقال : كان واحد فثنى ثم جمع ، ولو كان الأمر على ما قالوه لـــا كان للتثنية ولا للاثنين معنى بوجه ، ونحن نقول : خرجا ويخرجان فلو كان الاثنان جمعا لـــا كان لقولنا : يخرجان معنى ، وهذا لا يقــوله أحد (٨٤) .

باب الاســـتعارة

يتكلم ابن فارس كذلك عن الاستعارة ويذكـــر لها الأمثلة من القرآن وغيره ويلاحظ أنه ذكر فيها أمثلة للتشبيه وأخرى تصلح للكناية وكان حديثه عنها فى أكثر من موضع من الكتاب .

---

(٨٤) الصاحبى ١٦٠ يرى بعض العلماء ان اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بدليل قوله (فقد صغت قلوبكما) وذكر السيد أن السكاكى لم يرتض كون الاثنين جمعا لأن الجمع هو العدد الزائد على الاثنين لا الاثنان وأن الجمع اذا أطلق على ما هو أزيد من اثنين بأقل من واحد كان مجازا أيضا كما فى قوله (الحج أشهر معلومات) البقرة ١٩٧ .

انظر الشاف ٣٤٦/١ ، والمصباح للسيد الشريف ٢٤٥/١ .

يقول : ومن سنن العرب الاستعارة ، وهو أن يضعوا الكلمة للشيء استعارة من موضع آخر فيقولون : انشقت عصاهم (٨٥) ، اذا تفرقوا وذلك يكون للعصا ولا يكون للقوم ، ويقولون : كشفت عن ساقها الحرب (٨٦) .

وفي كتاب الله تعالى « كأنهم حمر مستنفرة » (٨٧) يقولون للرجل المذموم انما هو حمار ، وقال الشاعر :

[illegible] الى شيخ يجنب فنائه
[illegible] هو العير الا أنه يتكلم

---

(٨٥) على تشبيه الفرقة بينهم بانشقاق العصا وضعفها ، أو هو كناية عن الفرقة ، قال أبو عبيدة الأصل في العصا الاجتماع ولا تدعى عصا حتى تكون جميعا ، وهو مثل أصله أن الحاديين يكونان في رفقة فاذا فرقهم الطريق شقت العصا التي معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها ، مجمع الأمثال ١/٣٦٤ وأساس البلاغة ٢٣٩ .

(٨٦) الساق هنا اما مجاز عن الشدة باستعارتها لها ، أو تشبه الحرب بالرجل الذي جد في أمر فكشف عن ساقه للقيام بذلك على سبيل الاستعارة بالكناية ، انظر الكشاف ٤/١٤٧ ، والتفسير الكبير ٨/١٩٢ ، أو المراد الكناية عن الشدة وصعوبة الخطب .

(٨٧) المدثر ٥٠ ، وهذا ربما يعده من باب التشبيه حيث شبههم في اعراضهم ونفارهم عن سماع الحق بحمر نافرة من الأسد ، وقيل « فعل » بمعنى استفعل كعجب واستعجب والأحسن أنه للمبالغة ، كأنها لشدة العدو تطلب النفار من نفسها ، حاشية الشهاب ٨/٨٠ والكشاف ٤/١٨٨ ، والبيان عند الشهاب ١/٢٨ .

ومنه قوله تعالى « والتفت الساق بالساق (٨٨) — أئنا لمردودون في الحافرة » (٨٩) أي في الخلق الجديد •

و « بل ران على قلوبهم » (٩٠) وتقول العرب ران به النعاس أي غلب عليه ، و « لقد خلقنا الانسان في كبد » (٩١) أي ضيق وشدة

---

(٨٨) القيامة ٢٩ والاستعارة هنا واقعة في الساق بمعنى الشدة على أحد الوجوه المذكورة في الآية ، يقول الزمخشري : التفت ساقه بساقه عند الموت ، وقيل شدة فراق الدنيا بشدة اقبال الآخرة على أن الساق مثل في الشدة أو ساقاه حين تلفان في أكفانه ، الكشاف ٤/١٩٣ •

(٨٩) النازعات ١٠ ، يقال رجع فلان في حافرته أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه فيها ، جعل أثر قدميه حفرا ، فهي في الحقيقة محفورة الا أنها سميت حافرة كما قيل عيشة راضية وماء دافق أي منسوبة الى الحفر والرضا والدفق أو كقولك نهارك صائم ، أي أن هذا من قبيل المجاز العقلي في كلمة حافرة •

انظر الكشاف ٤/٢١٢ والتفسير الكبير ٨/٣٢٠ والصاحبي ١٧٣ •

(٩٠) المطففين ١٤ ، والآية استعارة أي ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها ، انظر الكشاف ٤/٢٣٢ ، والتفسير الكبير ٨/٣٥٤ •

(٩١) البلد ٤ ، وفي لفظ الكبد على ما يبدو مجاز مرسل من اطلاق الخاص على العام لقول الزمخشري : أصله من قولك كبد الرجل فهو أكبد اذا وجعت كبده وانتفخت فاتسع فيه حتى استعمل في كلب تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة ، وذكر الرازي وجوها أخرى ، وفي قوله « في كبد » استعارة تبعية في الحرف لقول الرازي : انه يدل على أن الكبد قد أحاط به احاطة الظرف بالمظروف انظر الكشاف ٤/٢٥٥ ، والتفسير الكبير ٨/٤٠٤ •

و « لنسفعا بالناصية » (٩٢) و « امرأته حمالة الحطب » (٩٣) وقوله « فما بكت عليهم السماء والأرض » (٩٤) .

ونقول العرب : ناقة تاجرة ، أى أنها تنفق نفسها بحسنها (٩٥).

---

(٩٢) العلق ١٥ ، وفى ذلك وجوه أن اطلاق القبض على السحب مجازا ، أو السفع كناية عن الاذلال والاهانة على اعتبار أن السفع هنا بمعنى السواد ، انظر التفسير الكبير ٨/٤٤٠ .

(٩٣) المسد : ٤ ، قال ابن قتيبة : المراد بالحطب النميمة حيث شبهوا النميمة بالحطب والعداوة والشحناء بالنار لأنهما يقعان بالنميمة كما تلتهب النار بالحطب .

وذكر الرازى وجوها أخرى منها أن المراد : ما حملت من الآثام فى عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه كالحطب فى تصييرها الى النار ، ونظيره أنه تعالى شبه فاعل الاثم بمن يمشى وعلى ظهره حمل قال « فقد احتملوا بهتانا » انظر تأويل مشكل القرآن ١٦٠ والتفسير الكبير ٨/٥٢٨ .

(٩٤) الدخان ٢٩ ، ذكر الشهاب أن فى الآية استعارة تمثيلية ، وقال الزمخشرى : ان فى ذلك تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض ، أو المراد فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض ، وعلى هذا الوجه يكون من قبيل المجاز المرسل باطلاق المحل وارادة الحال أو يكون من مجاز الحذف ، وقد قال بالوجهين كذلك ابن قتيبة والرازى وزاد وجها آخر وهو أن لكل مؤمن بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فاذا مات فقداه وبكيا عليه وقوم فرعون بخلاف ذلك وليس لهم عمل صالح فلم يبك عليهم أحد ، انظر حاشية الشهاب ٨/٩ والكشاف ٣/٥٠٤ ، وتأويل مشكل القرآن ١٦٧ ، والتفسير الكبير ٧/٤٥٣ والصاحبى ١٧٤ .

(٩٥) أى أنه استعير التجارة لنفاق الناقة ورواجها عند البيع بسبب حسنها ويمكن أن يكون فى اسناد التجارة الى الناقة مجاز عقلى .

وقوله « ويتخطف الناس من حـــولهم » (٩٦) و « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » (٩٧) و « ألا انما طائرهم عند الله » (٩٨) ويراد حظهم وما يحصل لهم ، والعرب تقول :

فانى لست منك ولست منى

اذا ماطار من مالى الثمين (٩٩)

أى حصل ، ومنه « أقم الصلاة (١٠٠) أى ائت بها كما أمرت به، و « ان ربك أحاط بالناس » (١٠١) أى عصمك منهم •

---

(٩٦) العنكبوت ٦٧ ، قال أبو السعود معنى يتخطف أى يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب ، ويبدو أن الخطف مستعار للاختلاس ، تفسير أبى السعود بهامش الرازى ٧/٣٨٩ •

(٩٧) الشعراء ٢٢٥ ، قال الرمانى : « واد » هنا مستعار وكذلك الهيمان ، وهو من أحسن البيان ، وحقيقته : يخلطون فيما يقولون ، وقال الزمخشرى : ذكر الوادى والهيوم فيه تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق ومجاوزة الحد ، النكت ١٦، والكشاف ٣/١٣٣ •

(٩٨) الأعراف ١٣١ ، قال الزمخشرى : المراد أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب ، وقال الشهاب : لما كانت العرب تتيمن بالسانح من الطير وتتشاءم بالبارح ونسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر وقسمة أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنعمة الكشاف ٢/١٠٦ ، وحاشية الشهاب ٧/٥١ والتفسير الكبير ٤/٢٧٩ •

(٩٩) الظاهر أن الطيران هنا مستعار لاذهاب المال على عكس ما ذكر•

(١٠٠) هود ١١٤ ، وقد ذهب الشهاب أن الأمر باقامة الصلاة يحتمل أن يكون من قبيل الاستعارة أو المجاز المرسل أو الكناية ، راجع القسم الثانى من البيان عند الشهاب ٣٨١ •

(١٠١) الاسراء ٦٠ ، قال الشهاب: الاحاطة هنا مجاز عن شمول قدرته

ومن الاستعارة قولهم : زالت رحالة سابح (١٠٢) ، كناية عن المرأة تستعصى على زوجها ، قال الشماخ :

وكنيت اذا زالت رحالة سابح

شمت به حتى لقيت مثالهـا

وكانت امرأته نشزت عليه وذلك قوله :

ألا أصبحت عرس من البيت جامحا

بغير بلاء سيىء ما بدا لها (١٠٣) ...

كما يعود ابن فارس للكلام عن الاستعارة مرة أخرى فى باب « التوهم والايهام » حيث يذكر أمثلة تدخل فى « الاستعارة بالكناية فيقول :

ومن سنن العرب التوهم والايهام (١٠٤) ، وهو أن يتوهم أحدهم شيئا ثم يجعل ذلك كالحق ، منه قولهم : وقفت بالربع أسأله ،

=

استعارة أو تشبيه مأخوذ من أحاط بهم العدو اذ أخذ بجوانبهم لاهلاكهم ، حاشية الشهاب ٤٤/٦ .

(١٠٢) وذلك أن الرحالة السابح هو الفرس السريع القوى الجرى ، فاذا زالت قوته قالوا زالت رحالة سابح ثم استخدموا ذلك فى عصيان المرأة انظر الصحاح مادة « رحل » .

(١٠٣) الصاحبى ١٧٤ .

(١٠٤) يقصد بالتوهم ما عرف عند البلاغيين فيما بعد بالاستعارة التخيلية ، ويقول الدسوقى ملخصا المذاهب فى الاستعارة بالكناية : ومحصل الاختلاف فى المكنية يرجع الى ثلاثة أقوال : أحدها ما يفهم من كلام القدماء وهو أن المكنية اسم المشبه به المستعار فى النفس للمشبه وأن اثبات لازمه

وهو أكمل عقلا من أن يسأل رسما يعلم أنه لا يسمع ولا يعقل (١٠٧) لكنه تفجع لما رأى السكن رحلوا وتوهم أنه يسأل الربع أين انتقلوا ؟.

وذلك كثير في أشعارهم قال :

وقفت على ربع لمية ناقتي
فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسأله حتى كاد مما أبثه
تكلمني أحجاره وملاعبه (١٠٦)

=

للمشبه استعارة تخيلية » والثاني : ما ذهب اليه السكاكي من أن المكنية لفظ المشبه المستعمل في المشبه به ادعاء بقرينة استعارة ما هو من لوازم المشبه به لصورة متوهمة متخيلة شبهت به أثبتت للمشبه، والثالث للخطيب من أن المكنية التشبيه المضمر في النفس المدلول عليه باثبات لازم المشبه به للمشبه وهو الاستعارة التخيلية ، ومحصل الخلاف في التخيلية يرجع الى قولين أحدهما : مذهب المصنف والقوم وصاحب الكشاف أنها اثبات لازم المشبه به للمشبه » والثاني للسكاكي : وهو أنها اسم لازم المشبه به المستعار للصورة المتوهمة التي أثبتت للمشبه،، ثم ان الزمخشري يرى ان قرينة المكنية كما تكون تخيلية تكون أيضا استعارة تحقيقية ، فعلم أن في المكنية ثلاثة مذاهب،وأعتقد أنه لا داعي للخوض هنا في تفاصيل هذا الخلاف لكونه معلوما مشهورا ، شروح التلخيص وحاشية الدسوقي ٤/ ١٥٠ ، ١٦٦ ـ ٢٢٠ .

(١٠٥) بذا يوضح ابن فارس قرينة الاستعارة في سؤال الربع .

(١٠٦) وقعت الاستعارة في البيتين في أكثر من موضع فهي في : أخاطبه ـ وأسأله وأبثه ، وتكلمني أحجاره ، ولا يخفى كيفية اجراء هذه الاستعارات .

وتوهم وأوهم أن ثم كلاما ومكلما ، وبين ذلك لبيد بقوله :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا

صما خوالد ما يبين كلامها (١٠٧)

كما يعقد بابا آخر أطلق عليه اسم الاعارة (١٠٨) وهو غير ما سبق ، ويذكر فيه أمثلة كذلك للاستعارة بالكناية فيقول : العرب تعير الشيء ما ليس له (١٠٩) فيقولون : مر بين سمع الأرض وبصرها ، ويقول تأثليم :

---

(١٠٧) الاستعارة فى فوقفت أسألها ، ولا يخفى حسن موقع الاستفهام الانكارى صنايع هذه الاستعارة ، الصاحبى ١٩٢ ، وقد نقل ابن فارس بعض الأمثلة التى مثل بها فى أول كلامه عن الاستعارة من ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ١٣٧ .

(١٠٨) فى الباب الأول الذى أطلق عليه اسم الاستعارة أورد أمثلة دارت بين كل ألوان الاستعارة وأدخل فيها أمثلة من التشبيه والكناية كما سبق توضيحه وهنا أطلق لفظ الاعارة على أمثلة من الاستعارة بالكناية .

(١٠٩) وهذا هو معنى عبد القاهر فى الفرق بين التصريحية والمكنية: وضرب آخر من الاستعارة وهو ما كان نحو قوله « اذ أصبحت بيد الشمال زمامها » هو الضرب وان كان الناس يضمونه الى الأول حيث يذكرون الاستعارة فليسا سواء ، وذاك أنك فى الأول ـ رأيت أسدا ـ تجعل الشيء الشيء ليس به ، وفى الثانى تجعل للشيء الشيء ليس له ، حيث ادعيت أن للشمال يدا ومعلوم أنه لا يكون للريح يد .. الخ ويطلق عبد القاهر على هذا أنه تشبيه على حد المبالغة .

انظر دلائل الاعجاز ٥٨ ، وأسرار البلاغة ٣١ ـ ٣٤ .

كذلك فعله والنـــاس طـــرا
بكف الدهر تقتلهم ضروبا(١١٠)

فجعل للدهر كفا ، ويقولون :

ثأرت المســمعين وقلت بوءا

بقتل أخى فزارة والخيـــار

قال الأصمعى لم يكن واحد منهما مســـــمعا وانما كانا عامرا وعبد الملك بنى مالك بن سمع فأعارهما اسم جدهما (١١١) .

كما يذكر فى صيغة أفعل لا يراد به التفضيل قولهم : جـــرى له طائر أشأم .

---

(١١٠) ومع الاستعارة فى كف الدهر فان فى قوله تقتلهم استعارة تبعية أيضا أو مجاز عقلى باسناد القتل الى الدهر .

(١١١) ويجعل الشهاب نحو هذا من قبيل التغليب ويعده من قبيل المجاز بعلاقة المصاحبة أو المشابهة وذلك فى قول البيضاوى (واله آبائك اسماعيل ..) عد اسماعيل من آبائه تغليبا للأب والجد او لأنه كالأب ، وعقب الشهاب على ذلك بقوله : المشهور فى علاقة التغليب أنها الجـــزئية والكلية ، فقوله : أو لأنه كالأب وجه آخر المراد به أن العم يطلق عليه أب بدون تغليب لمشابهته للأب فى كونهما من أصل واحد وقيامه مقامه كثيرا وكثر ذلك فيه فصـــح جمع أب وأب واب بمعنى أب وجد وعم على آباء كما يقال : عيون للعين الباصرة والجارية والذاصب مثلا ، فلا يرد عليه أن المقابلة غير صحيحة لأن المشابهة طريق للتغليب كالمصاحبة ، ويعتذر بأنه اعتبر التغليب أولا بعلاقة المصاحبة وثانيا بعلاقة المشابهة ، حاشـــية الشـــهاب ٢٤٣/٢ والكشاف ٣١٤/١ .

وقال الفـــــرزدق :

ان الذى سمك السماء بنى لنا
عزا دعائمه أعز وأطول (١١٢)

ومما يذكره من قبيل الاستعارة بالكنـــاية كذلك ما أورده فى باب «الاشتراك» بقوله معناه : أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثـــر كقوله جل ثناؤه « فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » (١١٣) فقوله «فليلقه» مشترك بين الخبر والأمر ، كأنه قال : فاقذفيه فى اليم يلقه اليم ، ويحتمل أن يكون اليم أمر بالقائه .

---

(١١٢) يقصد على هذه الرواية تشبيه العز بالشىء الذى يبنى عـــلى طريق الاستعارة بالكناية واسناد البناء له وهو أمر معنوى لكنه أراد أن يجعله محسا مشاهدا ويروى البيت « بنى لنا بيتا » فيـــكون البيت هنا استعارة للشرف لأنه يفتخر ، والمعروف أن هذا البيت من شواهد كون تعريف المسند اليه بالموصـــولية ذريعة الى التعريض بشأن الخبر ، يقول السبكى : لا شك أن الموصـــول كان ذريعة الى ذكر صـــلته وذكرها ذريعة تعظيم الخبر الذى هو بناء البيت ، وذلك تدركه بالذوق ، كما يقول المغربى المذوق شاهد صدق على ذلك الايماء فانه اذا قيل ان الذى صنع هذه الصنعة الغريبة فهم منه عرفا أن ما يبنى عليه أمر من جنس الصنعة والاتقان ، فاذا قيل صنع لـــ كذا كان كالتأكيد لما أشار اليه أول الكلام ، ثم فى هذا الايماء تعريض لتعظيم بناء بيتهم ، وقد دار الجدل بين البلاغيين حول هذا البيت ولا داعى للتعرض لما قالوه هنا لأن هذا ليس محله، شروح التلخيص ٣٠٩/١ والصاحبى ٢١٦ .

(١١٣) طه ٣٩ ، قال البيضاوى : لما كان القاء البحر اياه الى الساحل أمرا واجب الحصول لتعلق الارادة به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمره

كما ذكر ضمن هذا الباب أيضا ما يصلح لأن يكون من قبيل التهكم حيث يقول :

ومن الباب « ذرنى ومن خلقت وحيدا » (١١٤) فهذا مشترك محتمل أن يكون لله لأنه انفرد بخلقه ومحتمل أن يكون خلقته وحيدا فريدا من ماله وولده .

بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر ، والأولى أن تجعل الضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم ، وذكر الزمخشرى نفس المعنى وزاد قوله : رجوع بعض الضمائر الى موسى وبعضها الى التابوت فيه هجنة لما يؤدى اليه من تنافر النظم ، وقدر أن يقال : المقذوف والملقى هو موسى فى جوف التابوت حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذى هو أم اعجاز القرآن والذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب ، وقد بين الشهاب نوع الاستعارة فى الآية فقال : قول البيضاوى كأنه ذو تمييز .. الخ اشارة الى أنه استعارة بالكناية بتشبيه اليم بمأمور منقاد واثبات الأمر تخييل ، وقيل : ان قوله (فليلقه) استعارة تصريحية تبعية ، حاشية الشهاب ٦/٢٠٠ والكشاف ٢/٥٣٦ والتفسير الكبير ٦/٣٤ .

(١١٤) المدثر ١١ قال الزمخشرى : (وحيدا) حال من الله عز وجل على معنيين : أحدهما ذرنى وحدى معه فأنا أجزيك فى الانتقام منه عن كل منتقم ، والثانى خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد ، أو حال من المخلوق على معنى خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد ، وقيل : نزلت فى الوليد ابن المغيرة وكان يلقب بالوحيد ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية ، فان كان ملقبا به قبل فهو تهكم به وبلقبه وتغيير له عن الغرض الذى كانوا يؤمونه من مدحه والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه فى الدنيا الى وجه الذم والعيب وأنه خلق وحيدا لا مال له ولا ولد فآتاه الله ذلك فكفر واستهزأ ، الكشاف ٤/١٨٢ ، الصاحبى ٢٢٥ .

— ويتحدث عن « الاستعارة التهكمية » فى باب ما يجــرى من كلامهم مجرى التهكم والهزء فيقول : يقولون للرجل يستجهل يا عاقل، ويقــــول شاعرهم :

فقلت لسيدنا يا حليم انك لم تأس أسوا رفيقا

ومن الباب أتانى فقريته جفاء ، وأعطيته حرمانا . ومنه قولهم :

ولم يكونوا كأقــــوام علمتهم

يقرون ضيفهم الملوية الجددا

يعنى البسياط ، ويقول الفرادق :

* قريناهم المأثورة البيض *

وقال عمــــرو :

قريناكم فجعلنا قــــــراكم

قبيل الصبح مرداة طحــــونا

ومن الباب حكاية عنهم « انك لأنت الحليم الرشيد » (١١٥) .

---

(١١٥) هود : ٨٧ ويذكر السيد أن هذا من الاستعارة التبعيه التهكمية من الصفة وقد أرادوا السفيه الغوى ، وقد ذكرها ابن قتيبة فى باب المقلوب هى والبيت الأول ص ١٨٥ هذا وللشهاب رأى فى الفرق بين قوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » وبين قولهم « تحية بينهم ضرب وجيع » حيث يذكر أنهما ليسا سواء فى المعنى وأن الآية من قبيل استعارة أحد الضدين للآخر ، وأن الثانى نوع من خلاف مقتضى الظاهر يقال له التنويع وهو ادعاء أن للمسمى نوعين : متعارفا وغير متعارف على طريقة التخييل ، و جرى فى مواطن شتى :

(أ) منها التشبيه كقوله « نحن قوم ملجن .. الخ »

كلامه عن أمثلة من الاستعارة التبعية فى الحرف :

وضح ابن فارس بعض أمثلة الاستعارة التبعية فى الحرف فقال :

=

(ب) ومنها أن ينزل ما يقع فى موقع شىء بدلا عنه منزلته بلا تشبيه ولا استعارة كما فى الاستثناء المنقطع وما يضاهيه سواء كان بطريق الحمل كما فى « تحية بينهم ضرب .. » أو بدونه كما فى قوله « فاعتبوا بالصيلم »

وحيث أطلق التنويع فالمراد به هذا ، وكم جعلوا مثاله أساسا وقاعدة له وليس هذا من المجاز لذكر طرفيه مرادا بهما حقيقتهما ولا تشبيها لأن التشبيه يعكس معناه ويفسده ، ومنه يعلم أنه يصح فيه الاستعارة أيضا لابتنائها على التشبيه ، وقد صرح به الشيخ فى دلائل الاعجاز فقال : اعلم أنه لا يجوز أن يكون سبيل قوله (لعاب الأفاعى القاتلات لعابه) سبيل قولهم : عتابه السيف ، وذلك انك تشبه فى بيت أبى تمام شيئا بشىء لجامع بينهما فى وصف وليس المعنى فى عتابه السيف على أنك تشبه عتابه بالسيف وذلك أن تزعم أنه يحمل السيف بدل العتاب ، ألا ترى انه يصح أن تقول مداد قلمة قاتل كسم الأفاعى ولا يصح أن تقول : عتابه كالسيف الا أن يخرج الى باب آخر ليس غرضهم بهذا الكلام فتريد انه قد عاتب عتابا خشنا مؤلما ، ثم انك اذا قلت : السيف عتابه خرجت به الى معنى حادث وهو أن تزعم أن عتابه قد بلغ فى ايلامه وشدة تأثيره مبلغا صار له السيف كأنه ليس بسيف ، وليس الشيخ أول من صرح به فانه مصرح به فى باب الاستثناء فى كتاب سيبويه وغيره وقد نبه عليه السكاكى فى قسم الاستدلال ، وفصله الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون » وقد فصلناه هنا لأن كثيرا من المصنفين اضطرب فيه كلامهم ، فتارة يجعلونه تشبيها ، وتارة استعارة ، وخبط بعضهم فى ذلك خبط عشواء انظر القسم الأول من البيان عند الشهاب ١٧٤ ــ ١٧٧ ، والمصباح ٢/٨٠٥ ودلائل الاعجاز ٢٤٠ ، وكتاب سيبويه ٣٦٥ ، ومفتاح العلوم ١٧٦ ، ٢٤١ والصاحبى ٢١٥ .

أن « ف » تكون بمعنى «على» كقوله تعالى « ولأصلبنكم فى جـــذوع النخل » (١١٦) ، وكان بعضهم يقول : انما قال فى جذوع النخل لأن

---

(١١٦) طه ٧١ ، اختلف العلماء فى معنى حرف الجر « فى » هنا فمنهم من يقول بأنه هنا نائب عن « على » والبعض الآخر يذكر أن الحرف فى الآية مستعار استعارة تبعية يقول المبرد : وحروف الخفض يبدل بعضها اذا وقع الحرفان فى معنى فى بعض المواضـــع ، قال الله (ولأصـــلبنكم فى جـذوع النخل) أى « على » ولكن الجذوع اذا أحاطت دخلت « فى » لأنهـا للوعاء يقال فلان فى النخل أى قد أحاط به ، وذكر أن هذا الابدال يكون على حسب الأحوال الداعية والمسوغة له وأما فى كل موضع فلا ، ويقول الأمير : ومذهب جمهور الكوفيين جواز نيابة حروف الجر بعضها عن بعض بلا شذوذ قال فى المغنى : فعليه حرف الجر مشترك وضعا بين جميع ما ورد له ولا ينافيه ذكر النيابة لأنهم لما رأوا هذا المعنى متبادرا من الحرف اكثر من تبـادره من الآخر حكموا بأن الآخر نائب وان كان كل منهما يستعمل فيه حقيقة ، فمن هذا يقال أن (فى جذوع النخل) على مذهبهم بمعنى « على » ولا تجوزا ولا شىء ، ويقول الدسوقى : ان مفهوم كلام ابن هشام أن فى الآية اسـتعارة بالكناية فشـــبه المصلوب بحال فى ظرف بجـامع التمكن ، ثم طوى ذكر المشبه به وذكر « فى » تخييل وهذا عند السكاكى ، والمشهور أنه استعارة تبعية شبه الاستعلاء بالظرفية الكلية فسرى التشبيه الكلى للجزئى ، وهو مذهب السعد ، وذهب الرازى الى أن فى الآية استعارة حيث شـــبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشىء الموعى فى وعائه ، وضـــعف كون « فى » بمعنى « على » وذهب الشهاب أيضا الى أن فى الآية استعارة تبعية بتشبيه شدة حاله بدخول المظروف فى ظرفه لشدة تمكنه فيه ، الـــكامل ٢/٨٢ ، رسالة الأمير على البسملة ورقة ٣ ، تقرير الانبابى على حاشية الصـــبان ٢/٣٠ وحاشية الدسوقى على المغنى ١١٩ ، التفسير الكبير ٦/٥٦ ، وحاشية الشهاب على البيضاوى ٦/٢١٦ وانظر شروح التلخيص وحاشية الدسوقى ٤/١٢٢ .

الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور (١١٧) فلذلك جاز أن يقـــال فيــه هــذا (١١٨) .

وفى موضع آخر ذكر مثالا من الاستعارة تحت « باب نظم العرب لا يقوله غيرهم » حيث يقول : يقولون عاد فلان شيخا ، وهو لم يكن شيخا قط ، وعاد المـاء آجنا ، وهو لم يكن آجنا فيعود ، ومن هــذا فى كتاب الله « يخرجونهم من النور الى الظلمـات » (١١٩) وهم لم يكونوا فى نور قط ، ومثله « يرد الى أرذل العمر » (١٢٠) وهو لم يكن فى ذلك قط .

---

(١١٧) وهذا معنى الاستعارة فى الآية .

(١١٨) الصاحبى ١٢٨ .

(١١٩) البقرة ٢٥٧ ولعل ابن فارس لم يتنبه للاســـتعارة فى هذا ، يقول البيضاوى (الله ولى الذى آمنوا) المراد بهم من أراد ايمانه وثبت فى علمه أنه يؤمن (يخرجهم) بهدايته (من الظلمات) من ظلمات الجهـــل والشبه المؤدية الى الكفر الى (النور) الى الهدى الموصل الى الايمان ، ويقول الشهاب موضحا ذلك : قوله من أراد ايمانه لأن من آمن حقيقة فهو مخرج من الكفر ، وكذا الذين كفروا محمول على العزم والتصميم ، فلابد أن يحمل ايمانهم الذى خرجوا منه على الايمان الفطرى ، وكفرهم الذى هم عليه عـلى الارتداد ، والظلمات على هذا الكفر والنور الايمان ، وهناك وجه آخر : وهو أن يكون آمنوا وكفروا على ظاهره ، بأن يراد بالظلمات الشبه ، وبالنـــور اليقين والبينات ، وهما استعارتان على الوجهين ، هذا ما ذكره الزمخشرى لكن البيضاوى خلط بين الوجهين ، حاشية الشــــهاب ٣٣٦/٢ ، وانظر الكشاف ٣٨٧/١ .

(١٢٠) النحــل ٧٠ والحج ٥ ، وانظر التفســـير الكبير ٣٣٤/٥ والصاحبى ٢٢٣ .

كلام ابن فارس عن الكناية (١٢١) :

تكلم ابن فارس عن الكناية فى أكثر من موضع من الصاحبى فقد أورد مجموعة من أمثلة الكناية ضمن مراتب الكلام وقد ذكر على أنها من الايماء يفصح به قائله الى خبر لم يفصح به .

فقول القائل : لم أغر يوم عينين (١٢٢) ، ورويدا سوقك بالقوارير (١٢٣) ... الخ .

ومن الأشياء التى أوردها مستعملة بمعنى الكناية «ذات» حيث يقول : وتكون كناية عن ساعة من يوم أو ليلة أو غير ذلك كقولك ذات يوم ، وذات عشية ، وتكون كناية عن الحال كقوله :

وأهل خباء صالح ذات بينهم
قد أحتربوا فى عاجل أنا آجله

ومن هذا قوله جل ثناؤه « وأصلحوا ذات بينكم » (١٢٤) أى

---

(١٢١) وقد ذكر العلماء عدة أسباب وفوائد لاستخدام أسلوب الكناية منها : التنبيه على عظم القدرة وترك اللفظ الى ماهو أجمل ، أن يكون التصريح مما يستقبح ذكره وقصد الاختصار ، والتنبيه على المصير ، وفطنة المخاطب ، وتحسين اللفظ ، وقصد البلاغة .. الخ
انظر البرهان ٢/٣٠٠ ، والاتقان ٣/١٥٩ .

(١٢٢) الظاهر ان هذا المثال من قبيل التعريض بانسان آخر فى هذا اليوم أو هو مثل يضرب تعريضا بمن فر من شىء ما ، وهو يوم لبنى نهشل على عبد القيس ، انظر العمدة ٢/٢٠٧ القوارير كناية عن النسوة وهذا حديث قاله النبى صلى الله عليه وسلم لأنجشة عندما كان يحدو بالابل التى تحمل النسوة ، انظر البرهان فى علوم القرآن ٢/٣٠٠ .

(١٢٤) الصاحبى ٤١ .

الحال بينكم وأزيلوا المشاجرة (١٢٥) .

ــ كما عقد بابين أخريين تحـــدث فيهما عن أمثلة الكنـــاية أحـــدهما :

« باب الايماء » (١٢٦) حيث قال : العرب تشير الى المعنى اشارة وتومىء ايماء دون التصريح فيقول القائل : لو أن لى من يقبل مشورتى لأشرت ، وانما يحث السامع على قبول المشورة ، وهو فى أشعارهم كثير ، قال الشاعر (١٢٧) :

---

(١٢٥) الآية (١) الأنفال ، وقد جعلها ابن قتيبة مما أشكل وغمض بالاختصار وقدره أى فرقوها على السواء ، ويقول الزمخشرى : حقيقة قوله « ذات بينكم » أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق كقوله « بذات الصدور » وهى مضمـــراتها لما كانت الأحـوال ملابســـة للبين قيل لها ذات البين كقولهم : اسقنى ذا انائك ، يريدون ما فى الاناء من الشراب ، ويفهـــم من قول الزمخشرى « لما كانت الأحوال ملابسة » أن هذا قد يكون من قبيل المجاز المرسل ، انظر الكشاف ١٤١/٢ ، ٤٧٥ ، وأساس البلاغة ١٤٧ ، وتأويل مشكل القرآن ٢٢٠ .

(١٢٦) الصاحبى ١٢٥ .

(١٢٧) لقد أطلق على الكناية عدة أسماء تداولها العلماء فى كتبهم فقد وردت عند ابن المعتز باسمها المتعارف عليه ، ووردت عند قدامة وأبى هلال باسم الأرداف ، ووردت عند ابن رشيق تحت باب الاشـــارة وذكر أنواعها التى عرفت عند السكاكى من ايماء ورمز .. الخ . كما وضـــح عبد القاهر مفهومها بأن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وتابع له فى الوجود فيومىء بـه اليه ويجعله دليلا عليه ، انظر البديع ٦٥ ، ونقد الشعر ٩٣ والصناعتين ٣٤١ ، والعمدة ٣٠٢/١ ودلائل الاعجاز ٥٢ .

اذا غرد المكاء (١٢٨) فى غير روضة
فويل لأهل الشـــاء والحمرات

أومأ الى الجدب وذلك أن المكاء يألف الرياض ، فاذا جـــدبت الأرض سقط فى غير روضة ، ومنه قول الأفوه :

ان بنـــى أود هـــم ما هم
للحرب أو للجدب عام الشـــموس (١٢٩)

أومأ بقوله : عام الشموس الى الجدب وقلة المطر والغيم ، اى ان كل أيامهم شموس بلا غيم ، ويقولون : هو طويل نجاد السيف ، انما يريدون طول الرجل ، وغمر الرداء (١٣٠) ، يومئون الى الجود ، وفدا له ثوبى ، وهو واسع جيب الكم ايماء الى البذل (١٣١) .

وطرب العنان ، يومئون الى الخفة والرشاقة (١٣٢) ، وفى كتاب الله « وقل رب أعوذ بك من همزات الشـــياطين ، وأعوذ بك رب أن

---

(١٢٨) المكاء ـ بضم الميم وتشـديد الكاف ـ طائر وجمعه المكاكى .

(١٢٩) كما يكنون عن يوم المطر بعكس ذلك كقول أبى نواس :

وشمسه حـــرة مخـــدرة ليس لهـــا فى سمائها نور

(١٣٠) ان قولهم غمر الرداء من قبيل الاستعارة المجردة لأن الغمر من صفة الرداء ، الا أن عبد الحكيم جعل كلمة (غمر) محتملة للترشـيح حيث قال : اذا كان من قولهم ثوب غامر أى واسع فهو ترشيح ، ولم يقل أحد من المتأخرين ان فى غمر الرداء كناية ، ولعل ابن فارس قصـــده بهذا حقيقة الرداء لاكونه استعارة على أنه وصف للثوب بالسعة الذى يلزم منه ســـعة عطاء صاحبه وكرمه ، انظر شروح التلخيص ٤/١٢٨ .

(١٣١) لأن سعة الجيب يلزمها كثرة ما يوضع فيه من مال للانفاق .

(١٣٢) وصف العنان بالطرب وهو الخفة والنشـاط يلزمه خفـــة صاحب العنان وهو الفرس وذلك كناية عن النجيبة .

يحضرون » (١٣٣) هذا ايماء الى أن يعيبونى بسوء ، ذلك أن العرب تقول : اللبن محضور ، أى تصيبه الآفات .

وأما الباب الثانى فقد أطلق عليه اسم «الكناية» وجعلها علـى قسـمين :

أحدهما ما هو معروف فى البلاغة ، والثانى يقصد به الكناية فى عرف النحويين « أى الاضمار » .

والذى يعنينـا هو القسـم الأول وقد تحدث عنه ابن فارس فقال : « الكناية لها بابان » أحدهما أن يكنى عن الشىء فيذكر بغـير اسمه تحسينا للفظ أو اكراما للمذكور ، وذلك كقوله جـل ثناؤه : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » (١٣٤) قالوا ان الجلود فى هذا الموضوع كناية عن آداب الانسان ، وكذلك قوله جل ثناؤه « ولـكن لا تواعدوهن سرا » (١٣٥) انه النكاح ، وكذلك « أو جاء أحد منكم من

---

(١٣٣) المؤمنـون ٩٧ ، ٩٨ ، قال الزمخشرى : أمر بالتعـوذ من نخسـاتهم وبالتعوذ من أن يحضره أصـلا ويحوموا حوله . وقال الرازى : فى (يحضرون) وجهان : أحدهما أن يحضرونى عند قراءة القرآن وقـال آخرون : بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لأنه الداعى الى وسوستهم كما يقول المرء أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك ، انظر الكشاف ٤٢/٣ والتفسير الكبير ٢٠٦/٦ والصاحبى ٢١٠ .

(١٣٤) فصـلت ٢٢ ، فى البرهان ٣٠٥/٢ كناية عن الفروج وفى الكشاف المراد بالجلود اما ظاهرها ، وقيل الجوارح وقيل كناية عن الفروج الكشاف ٤٥٠/٣ .

(١٣٥) البقرة ٢٣٥ ، وهذا من قبيل الكناية التى ترتب عليها مجاز ، يقول الشهاب . تعارف التعبير عن الوطء بالسر لأنه يسر ثم أريد به العقد الذى هو سببه ، والأول كناية ، فيكون الثانى من المجاز لشـهرة الأول ،

الغائط » (١٣٦) والغـــائط مطمئن الأرض ، كل هذا تحسين الألفاظ .
والله جل ثناؤه كريم يكنى كما فى قصة عيسى وأمه عليهما الســـلام « فالمسيح ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » (١٣٧) كناية عما لا بد لآكل الطعام منه.

والكناية التى للتبجيل قولهم : أبو فلان صيانة لاســـمه عن الابتذال ، والكنى مما كان للعرب خصوصا ثم تشبه غـــيرهم بهم فى ذلك .

ومما ذكره ابن فارس ونقله عنه الزركشى (١٣٨) « باب نفى

ولم يجعل من أول الأمر عبارة عن العقد لأنه لا مناسبة بينهما فى الظاهر ، وجعلها الزركشى مرة من قبيل الكناية عن الجماع ومرة جعلها من تبيـــل المجاز على المجاز لأن الوطء تجوز عنه بالسر وتجوز بالسر عن العقـــد لأنه مسبب عنه ، وعلاقة الأول الملازمة والثانى السببية ، حاشية الشـــهاب ٢/٣٢٣ والبرهان ٢/٢٩٨ .

(١٣٦) المائدة ٦ ، ذكر الشهاب كذلك أنه كنى به عن الحدث وليس فى الكلام مقدر كما توهم ، وعند أبى حيان مجاز مرسل باطلاق المحل علـى الحال فيه ، وذكر الزركشى أن ذلك لكثرة استعماله صار بمنزلة التصريح انظر حاشـية الشـــهاب ٣/١٤١ ، والبحر المحيط ٣/٢٦٥ ، والبرهان ٢/٣٠٤ ، والصاحبى ٢١٩ .

(١٣٧) جاءت الآية كناية عن الحدث ، فى البرهان وذكر أن الجاحظ لم يرتض ذلك وذكر الرازى أن جعل ذلك كناية ضعيف لعدة وجوه : أن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون ، وأن الأكل دليل على الحاجة والاله لا يحتاج أنه لو كان الها لقدر على دفع الم الجوع ، وكل هذا يضعف الذهاب للكناية البرهان ٢/٣٠٤ والتفسير الكبير ٣/٤٣٦ .

(١٣٨) البرهان ٣/٣٩٥ والصاحبى ٢١٨ ، ٢٢٥ .

الشيء جملة من أجل عدمه كمال صفته » كقول الله تعالى فى صفة أهل النار « لا يموت فيها ولا يحيى » (١٣٩) فنفى عنه الموت لأنه ليس بموت مريح ونفى عنه الحياة لأنها ليست بحياة طيبة ولا نافعة ، وهذا فى كلام العرب كثير •

ـ ثم يقول : ومن هذا الباب أو قريب منه قوله « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها » (١٤٠) ومنه « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ـ أثبت لهم علما ثم قال ـ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » (١٤١) لما كان علما لم يعملوا به كانوا كأنهم لا يعلمون •

ـ كما يتحدث عن « باب نفى ضمنه اثبات » كقول الله تعالى : « لا شرقية ولا غربية » (١٤٢) قال أبو عبيدة : لاشرقية تضحى للشرق ولا غربية (١٤٣) لا تضحى للشرق لكنها شرقية غربية يصيبها ذا وذا الشرق والغرب (١٤٣) •

---

(١٣٩) الأعلى ١٣ وهذا معنى ما فى الكشاف ٤/٢٤٤ •

(١٤٠) الأعراف ١٧٩ ويقول الرازى يجب حمل الآية على أن المراد أنهم بكثرة الاعراض عن الدلائل وعدم الالتفات اليها صاروا مشبهين بمن لا يكون له قلب فاهم ولا عين باصرة ، التفسير الكبير ٤/٣٢١ وانظر الكشاف ٢/١٣١ •

(١٤١) البقرة ١٠٢ وجعل الخطيب الآية من أمثلة تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم ، وانتقده السيد بقوله : وحمل الآية على ذلك ليس بشيء اذ ليس ههنا الخطاب لأهل الكتاب الايضاح ١/١٨ ، والمصباح ١/٦٨ وانظر المطول ٤٦ ،

(١٤٢) النور ٣٥ ، وما ذكره هنا أحد الوجوه فى الكشاف ، ٣/٦٧ ،

(١٤٣) الصاحبى ٢١٧ ، ٢١٨ •